

تأليف

دكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى

أستاذ الجغرافية المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

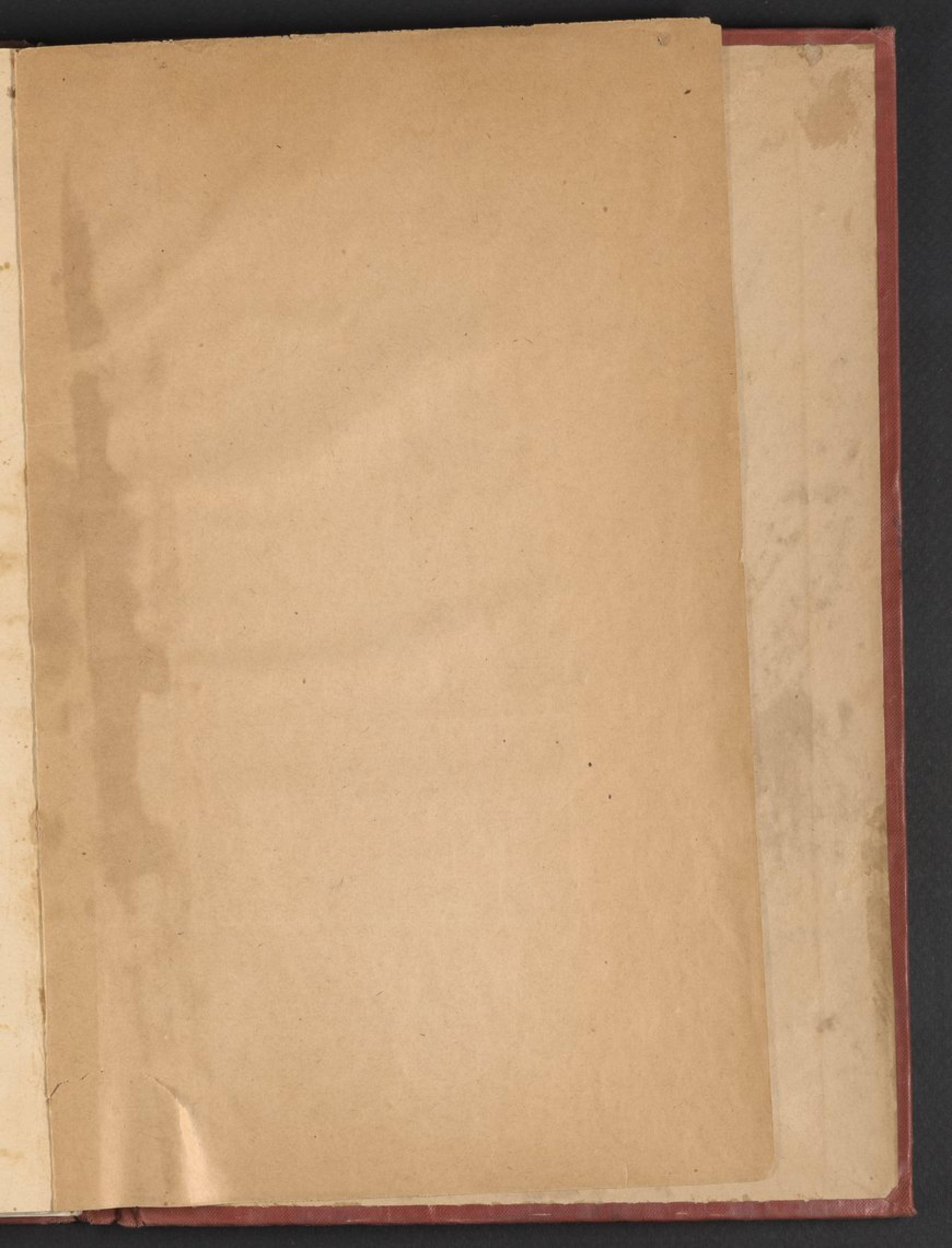
٩ شارع عدلى باشا — القاهرة

الثمن ٣٠ ص

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٤



نهر الرين في التاريخ والسياسة

تأليف

دكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى

أستاذ الجغرافية المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا — القاهرة

الثمن ٣٠ م

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٤

مقدمة

فى ذلك الوقت الذى يسود فيه النزاع العالم ، أرانى مضطراً إلى الحديث ، فى إيجاز ويسر ، عن المشكلة التى لعبت دوراً عظيما فى ذلك النزاع ، وهى مشكلة نهر الرين . والحديث عن هذه المشكلة يتطلب البحث التاريخى والبحث الجغرافى : يتطلب البحث التاريخى حتى لايكون فهم القارىء لها ناقصاً ، فيبدأ مع المشكلة يوم أن بدأت ، ويسير معها سيراً وئيداً حتى يصل بها إلى تلك النهاية التى وقف العالم عندها اليوم .

ويتطلب البحث الجغرافى ، لأن هذا البحث هو الذى سيوضح جوانب هذه المشكلة ، وينير الطريق للقارىء ، ويقف به عند الأسباب والمسببات فيلمسها بيده ويشعر بها شعور من يسيطر على الأفكار والآراء ، فيفهمها ويحللها ويقف منها على ما يريد .

والكتاب من هذه الناحية الجغرافية ، يحقق غرضين هامين : —

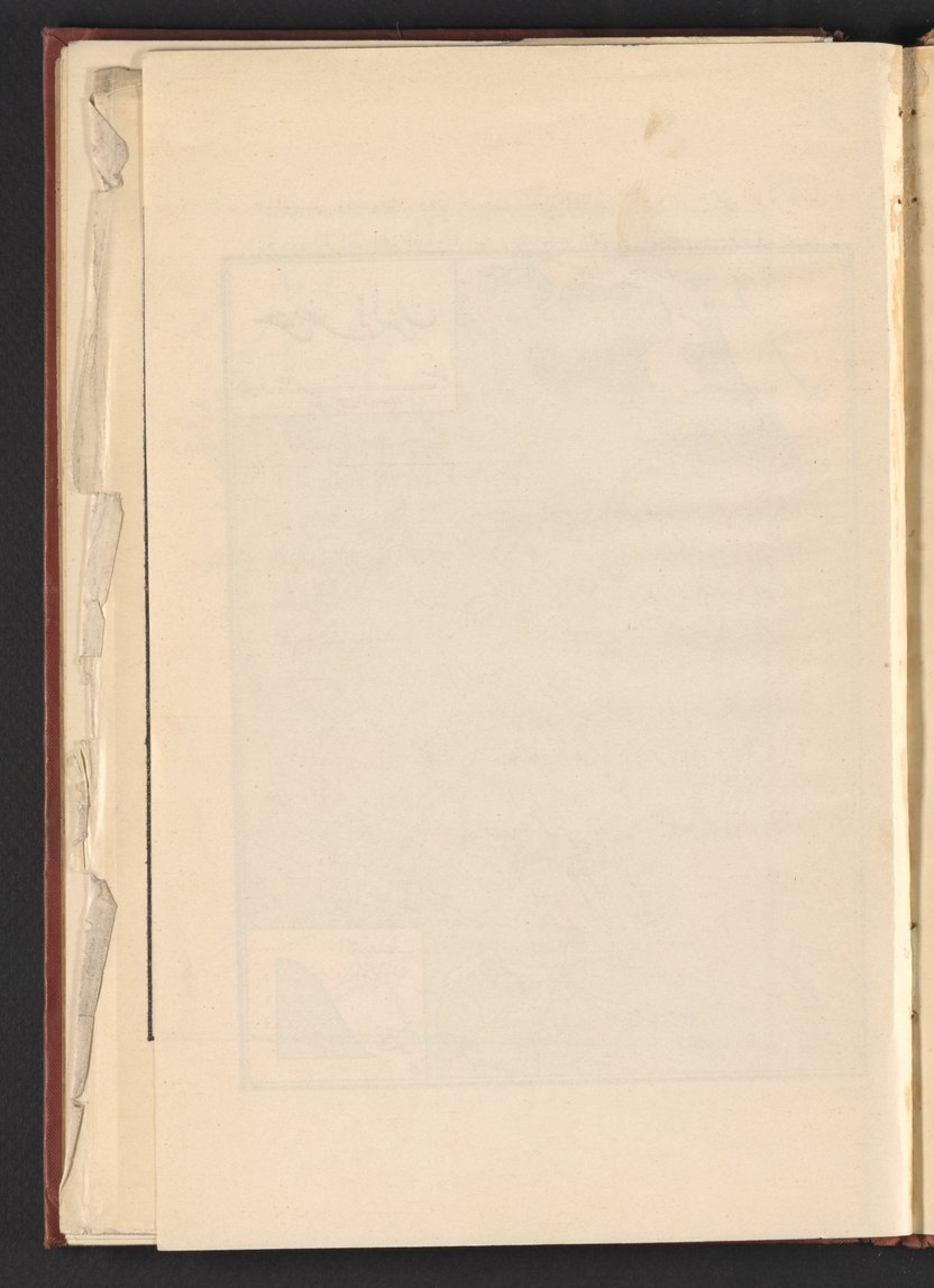
أولهما : إظهار أثر العوامل الجغرافية المختلفة التى تكون فى مجموعها هيكل البيئة ، ومبلغ التفاعل بين هذه العناصر ، **وثانيهما** : إبراز الحقائق الجغرافية المترتبة على الموقع الجغرافى ودرجة التقدم البشرى . وقد احتصت الطبيعة نهر الرين بكثير من المميزات والصفات ، حتى غدا بطابعه الخاص يمثل إنموذجا لما يمكن أن يصل إليه التعاون بين الإنسان والبيئة . والواقع أن عناصر الحياة البشرية فى الحوض تحمل طابع الاختلافات العظيمة فى التضاريس والبيئة والمناخ ، كما أنها تظهر الآثار المترتبة على اتجاهات الطرق الطبيعية ، والفتحات التضاريسية ، التى تؤدى إلى جهات متباينة ، وقد نجم عن ذلك كله أن تأثرت كل ناحية من نواحى الدراسة البشرية بدرجات متفاوتة . وإذا كانت البيئات المختلفة قد ساهمت بأنصبة متفاوتة فى تنظيم وتشكيل الجغرافية البشرية للحوض ، فإن أثرها قد تعدى الحوض إلى أوربا الغربية

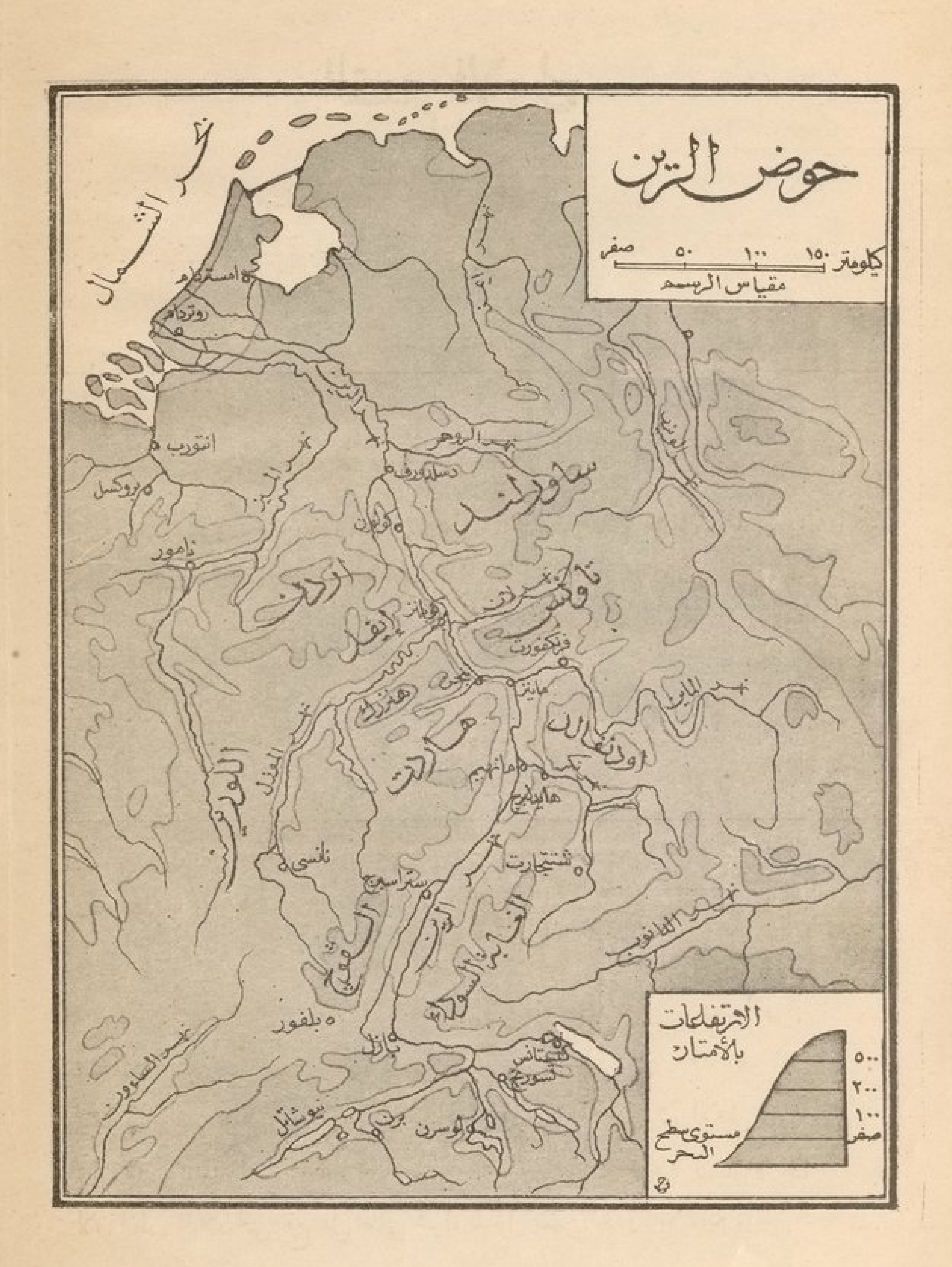
والوسطى والجنوبية . وقد احتفظت بعض البيئات الثانوية بنوع من العزلة بفضل وجود الحواجز الجغرافية الطبيعية ، وساعدها ذلك على أن تظل متميزة فى جنسها ولغتها ونظام حياتها ، على حين تأثرت البيئات الأخرى بنتائج الموقع الجغرافى ، ذلك الموقع الذى جعل حوض الرين منذ أقدم العصور ، ملتقى الهجرات الجنسية المتعددة ، التى تركت آثارها فى ذلك التعقيد العظيم الذى يميز الدراسة الجنسية واللغوية .

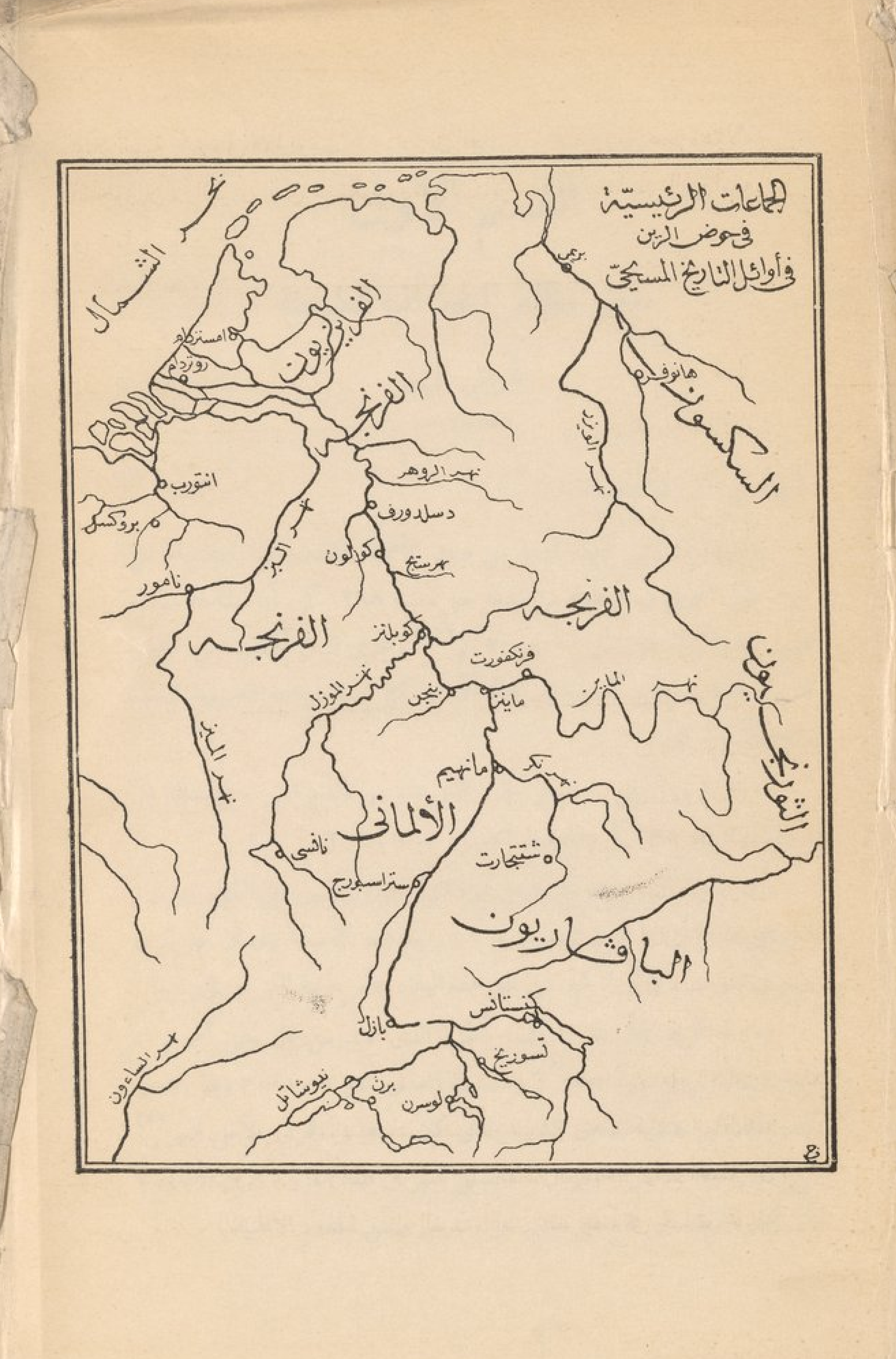
وقد ترتب على ذلك كله تعقيد تاريخ المنطقة حتى أصبحت حياتها السياسية والاقتصادية أعقد من ذنب الضب . وقد كان حوض الرين ولا يزال أهم مواطن النزاع والاحتكاك فى القارة الأوربية ، ولا يقتصر هذا الكفاح على الشعوب التى يضمها الحوض ، بل تعداها إلى غيرها ، حتى أصبح هذا النضال المرير أظهر مايميز الدراسة التاريخية والسياسية لغرب القارة ، ووسطها ، وجنوبها . وفى الحق قد تطور الكفاح من أجل الرين وحوضه حتى أضحى يمثل جزءاً أساسياً فى السياسة العامة للسيادة الكاملة المطلقة فى هذا القسم من أوربا ، وقد أدى ذلك إلى نتائج وتطورات خطيرة فى تاريخ القارة السياسى فى مختلف العصور .

من كل ما تقدم أعتقد أن إخراج الكتاب فى وضعه الحالى ، وفى ظرفه المحيط بنا ، يسد جانبا من جوانب النقص فى ثقافتنا الخارجية ، ويحقق غاية من غاياتنا وهى المشاركة فى الثقافة العالمية . فإذا كنت قد وفقت من ذلك إلى ما أريد ، فالله أشكر أن مكننى من هذا ، وساعدنى عليه ، وحقق لى رغبة من رغباتى والسلام ؟

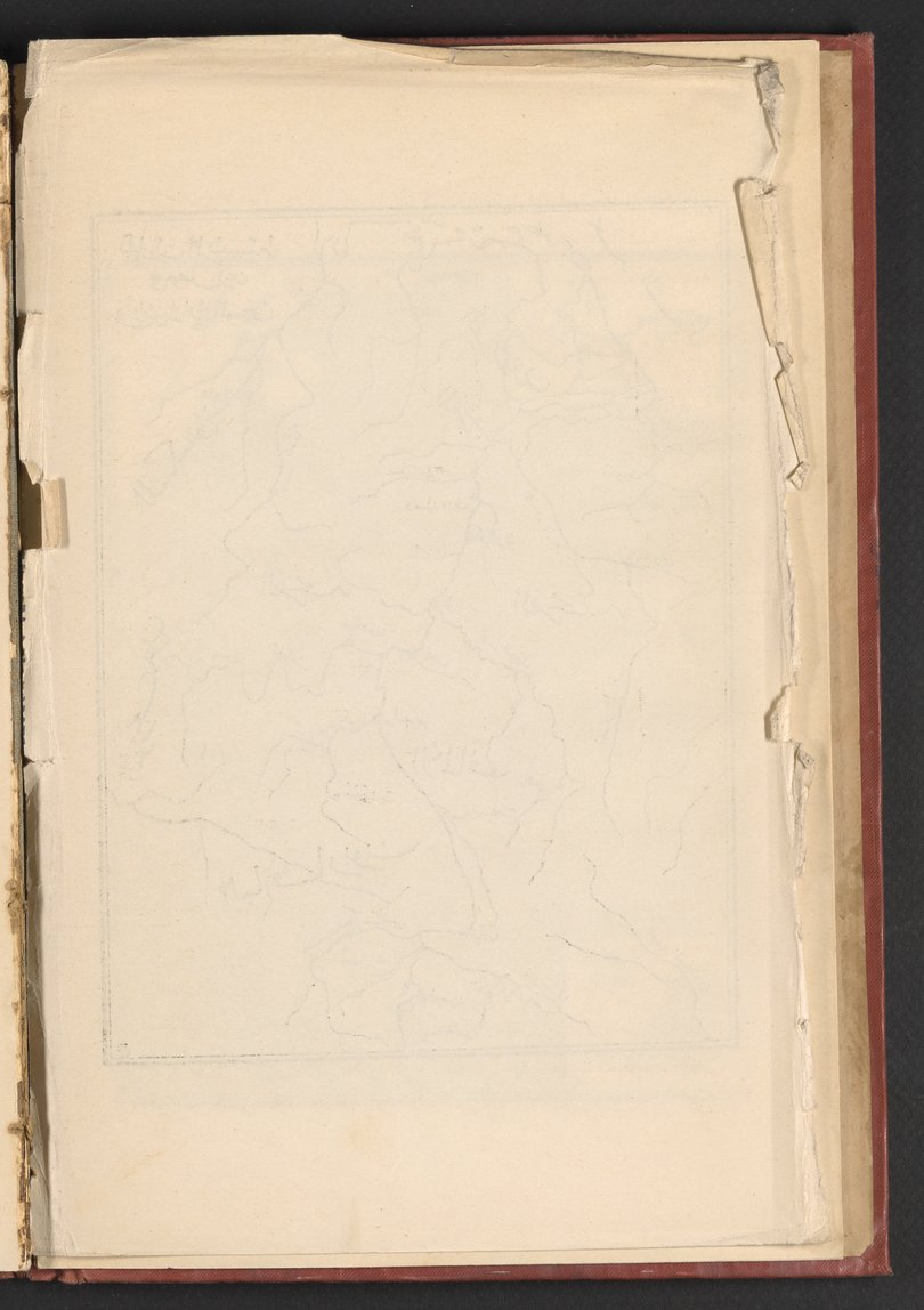
دكتور محمد عبد المنعم الشرقاوى




حوض الرين
كيلومتر ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ صفر
مقياس الرسم
بحر الشمال
امستردام
روتردام
انتورب
بروكسل
نامور
دسلدورف
كولون
نهر الروهر
ساورلند
الاردن
الايفل
كوبلنز
فرنكفورت
ماينز
هونزروك
هاردت
مانهيم
هايدلبرج
اودنفالد
نهر الماين
شتتجارت
ستراسبرج
نانسي
بلفور
بازل
الغاب الاسود
نهر الدانوب
نهر الصاوون
كنستانس
زوريخ
نيوشاتل
برن
لوسرن
الارتفاعات بالأمتار
٥٠٠
٢٠٠
١٠٠
صفر
مستوى سطح البحر



الجماعات الرئيسية
في حوض الرين
في أوائل التاريخ المسيحي
بحر الشمال
الفريزيون
امستردام
روتردام
الفرنج
انتورب
بروكسل
نامور
نهر الروهر
دسلدورف
كولون
نهر الموز
الفرنجة
كوبلنز
فرنكفورت
نهر الماين
الفرنجة
بنجن
ماينز
مانهيم
الألماني
نهر الرين
نافسي
ستراسبورج
شتتجارت
السكسون
الثورنجيون
الباڤاريون
بازل
كنستانس
تسوريخ
برن
لوسرن
نيوشاتل
نهر الساءون



القسم الأول

بعض مظاهر الجغرافية الطبيعية

لحوض الرين

طبيعة نهر الرين وحوضه :

يعتبر الرين أشهر أنهار أوربا من حيث الأهمية الاقتصادية وعاشرها من حيث طول المجرى ويبلغ طوله من منبعه حتى مصبه ١٢٩٨ كم . أما مساحة حوضه فهى عظيمة ولا تقل عن ٢٠٠٫٠٠٠ كم٢ (١) ومجرى الرين كغيره من مجارى الأنهار الأخرى يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام لكل منها خواصه الطبيعية المميزة وهذه الأقسام هى : —

ا — الرين الأعلى : يشمل الجزء الذى يمتد من منابع النهر حتى مدينة بال ويبلغ طوله نحو ٣٨٨ كم ومتوسط انحداره نحو ١ : ٢٠٠ .

وهو انحدار كبير يدعو إلى تدفق مياه النهر بشدة وظهوره على شكل سيول . وقد سمى هذا الجزء « الرين السويسرى » وترجع هذه التسمية إلى أن نهر الرين ينبع فى سويسره كما أن أكثر من ثلثى هذه البلاد يتأثر بمائية النهر أو يؤثر فيها .

ب — الرين الأوسط : يشمل الجزء الذى يمتد من بال حتى أمرخ : Emmerich ويبلغ طوله ٧٣٨ كم ومتوسط انحداره نحو ١ : ٣٠٠٠ وهو انحدار يفقد مياه النهر خاصية التدفق الشديد الذى كان يميزها فى المجرى الأعلى للنهر (٢) وإن كان لا يفقدها سرعة الجريان . ويسمى النهر فى هذا الجزء « الرين الألمانى » لأن أغلب البلاد التى تقع على جانبى مجراه تدخل ضمن الحدود الألمانية .

ح — الرين الأدنى : يشمل الجزء الذى يمتد من أمرخ حتى بحر الشمال ويبلغ طوله ١٧٢ كم ويسمى « الرين الهولندى » وهو يجرى فى اقليم منبسط ولهذا كان انحداره بطيئاً جداً ولقد ترتب على بطء تيار النهر فى هذا الجزء أن كثرت رواسبه وتعددت فروعه وتغير مجراه .

ا — اما الرين الأعلى فيتكون فى مقاطعة جرزون : .Grison بسويسره نتيجة اتحاد مسيلين رئيسيين هما ١ — الرين الأمامى : .Vorder-Rhein — ٢ الرين الخلفى : .Hinter-Rhein ويعتبر الرين الأمامى : .Vorder-Rhein المنبع الحقيقى للنهر على الرغم من أن زميله أكثر منه أهمية سواء كان ذلك من حيث طول المجرى أو من حيث كمية المياه التى يغذى بها النهر(٣) وينبع الأول من بحيرة توما .Toma على ارتفاع ٢٣٤٤ متراً عند قدم جبل بادس .Badus ثم يتجه بمجراه نحو الشمال فالشرق فالشمال الشرق . أما الثانى فإنه ينبع من جبل رينفالد هورن .Rheinwaldhorn وهضبة أدولس .Adules ثم يجرى فى وادى رينفالدثال .Rheinwaldthal متجهاً نحو الشرق فالشمال الشرقى ثم الشمال . ولهذا الوادى أهمية كبيرة كطريق طبيعى للمواصلات ذلك لأن الممرات الجبلية التى تربط سويسره فى الشمال بسهل البو فى الجنوب تبدأ منه ومن بين هذه الممرات ممرا برردينو : .Berardin وشبلوجين : .Splügen اللذان يصلان سويسره بحوض تسينو : Tessino وأدا : .Adda فى إيطاليا . وبالتقاء النهرين الرئيسيين اللذين يجمعان مياه نحو ١٥٠ نهراً جليدياً يتكون الرين الأعلى وتتدفق مياهه فى سرعة هائلة تجعله غير صالح للملاحة . على أن مجرى الرين الأعلى يبدأ فى الاتساع ابتداء من ريخناو .Reichenau . كذلك يهدأ تياره ويصبح صالحاً للملاحة نسبياً ويستمر على هذه الحال متجهاً نحو الشمال حتى يصل إلى بحيرة كونستانس .Constance وتبلغ مساحة هذه البحيرة نحو ٥٣٩ كم٢ ولا يتبع سويسره منها إلا شاطئها الجنوبى . أما الشواطىء الأخرى فتوجد ضمن النمسا وباڤاريا وڤرتمبرج وبادن ويلحظ أن الرين يدخل هذه البحيرة ومياهه محملة بالرواسب لكنه حين يخرج

منها يكون رائقا صافيا لدرجة كبيرة(٤) وليس من شك فى أن البحيرة آخذة فى الانكماش بالتدريج بفضل الرواسب العظيمة التى يأتى بها النهر ، وتلمس هذه الظاهرة بوضوح عند مدخل النهر فيها إذ قد نجح النهر فى تكوين سهل رسوبى لا تقل مساحته عن ٣٠٠ كم٢ وهذا السهل آخذ فى الاتساع باطراد وقد اقترح بعض الجغرافيين مثل شارل جراد Charles Grad أن تحول بحيرة كونستانس إلى خزان عظيم يمكن بوساطته تنظيم التصريف المائى للنهر عن طريق إقامة سد عند مخرجها ولكن هذا المشروع لم يتعد دائرة التفكير بسبب ما يمكن أن يؤدى إليه من مشكلات بين الدول التى يهمها الأمر(٥) .

وإلى الغرب من كونستانس بحيرة أخرى تكاد تتصل بها وهى بحيرة انترزى Untersee ولما كان مستوى هذه البحيرة يقل عن مستوى بحيرة Constance بمتر واحد فقد ظهرت ضرورة حفر قناة بين البحيرتين لتوصيل مياههما لمساعدة الملاحة ويخرج الرين من بحيرة انترزى عند مدينة شترن .Stern السويسرية ويتجه نحو الغرب حتى إذا ما بلغ شافهوز .Schaffhause اتخذ لنفسه مجرى ضيقا يجتاز به كتلة الصخور الجيرية الصلبة التى تتكون منها جبال جورا .Jura . وعندما يبلغ النهر منطقة لوفن .Laufen تهبط مياهه فجأة من ارتفاع عشرين متراً مكونة شلالات شافهوزن .Schaffhausen الشهيرة التى تعتبر أعظم شلالات أوربا .

وليست شلالات شافهوزن هى الوحيدة التى يجتازها النهر فى هذه المنطقة بل أن هناك شلالات أخرى أهمها زوزاخ ورينسفلدن .Rheinsfelden وجميعها تعوق الملاحة وإن كانت ذات فائدة كبيرة فى توليد الكهرباء . وبعد أن يجتاز النهر هذه الشلالات الأخيرة يستعيد هدوءه من جديد ويلتقى به على جانبه الأيسر نهر آخر .Aar وهو أكبر فروع الرين الأعلى وأعظمها أهمية . وعندما يبلغ النهر مدينة بال يكون اتساع مجراه نحو ٢٠٦ متراً وبعد هذه النقطة يغير النهر اتجاهه الأول إذ بدلا من أن يجرى من الشرق إلى الغرب مكوناً الحد الفاصل بين ألمانيا وسويسره يتجه من الجنوب إلى الشمال مكوناً الحد السياسى بين ألمانيا وفرنسا(٦) .

ب — **أما الرين الأوسط** فإنه بعد أن يترك حدود سويسره يواصل جريانه في سهل رسوبي متسع تحده من الغرب كتلتا الفوج وهاردث .Hardt ومن الشرق كتلتا الغابة السوداء وأودنفالد "Odenwald" ويبلغ طول هـذا الوادى نحو ٢٨٠ كم وعرضه نحو ٣٠ كم في المتوسط ويتكون من رواسب مختلفة من الرمل والحصى والحصـباء تغطيها في بعض الأحيان تربة اللويس ، والرين في هـذه المنطقة السهلة سريع الجريان ولذلك كانت مقدرته عظيمة على نحت الرواسب التى تتكون منها جوانب مجراه ثم على حملها من جانب وأرسابها في جانب آخر وتتجلى هذه الظاهرة ظاهرة النحت في أحد جوانب النهر والارساب في الجانب الآخر بوضوح في مناطق الانحناءات والانثناءات وهذا يفسر كيف أن بعض المدن قد تغيرت مواقعها بالنسبة لمجرى النهر ونضرب مثلا لذلك مدينة نويبرج Neuburg التى كانت في سنة ١٥٧٠ م على الشاطىء الأيمن للنهر ثم أصبحت الآن على الشاطىء الأيسر (٧) .

وعلى الرغم من سرعة جريان النهر في هـذه المنطقة فانه قد نجح في تكوين عدد كبير من الجزائر داخل مجراه بعضها من الرمال والحصباء التى جاء بها من منابعه الألبية العليا وقت أن كانت مياه النهر أغزر وفيضاناته أعظم وأكبر ، وبعضها الآخر قد كونته المياه التى يأتى بها النهر وينحت بها جوانب المجرى في الجهات التى تكثر فيها الانحناءات . ويجدر بنا أن نذكر أنه قبل أن توجه عناية شديدة للمحافظة على جوانب النهر في هذه المنطقة ، كان النهر كثير التبديل والتغيير لمجراه ، وكانت عملية الخروج على المجرى القديم وإتباع مجرى آخر جديد عملية مستمرة وقد ترتب على هذه العملية بطبيعة الحال خلق جزائر جديدة .

وانحناءات النهر وتعرجاته في هذه المنطقة ليست من النوع الذى يحدث في الأنهار البطيئة التى فرغت من عملية حفر مجاريها وبدأت دور جريانها في مجرى يرتفع عن مستوى الأراضى المجاورة بل إنها من النوع الذى تكون نتيجة للفيضانات الفجائية ونتيجة للرواسب الكثيرة التى تأتى بها هذه الفيضانات وتلق

بها فى المجرى . وليس النهر فى هذه المنطقة عبارة عن مجرى واحد كما يظهر فى بعض الخرائط بل الحقيقة أن مجراه عبارة عن خليط من المجارى المستعملة أو المهجورة أو التى فى دور الانشاء ، وعلى هذا الأساس لايمكن وصفه بأنه طريق جيد للمواصلات أو أنه يوثق الروابط بين البلاد التى تقع على أحد جانبيه بالجانب الآخر ويمكن اعتباره بحق حاجزاً طبيعيا مانعا فى بعض المواضع[٨].

ومن أهم الروافد التى تتصل بالرين الأوسط نهير نكر .Neckar الذى ينبع فى الغابة السوداء ثم يتجه صوب الشمال بعد أن يأسر بعض روافد الطونة[٩] . ثم يتجه إلى الشمال الغربى والغرب حيث يلتقى بالرين عند مانهايم :.Mannheim وقد اكتسبت هذه المدينة أهمية تجارية بفضل وقوعها عند مصب النكر من جهة وفى مواجهة مدينة لدفجسهافن Ludwigshaven من جهة أخرى ولهذه الأخيرة مركز ممتاز لوقوعها على طرق المواصلات الآتية من الغرب ومن الجنوب ومن الشمال :

ومن الروافد التى تلتقى بالرين الأوسط نهير الماين Main الذى يلتقى به عند ماينز .Mainz وقد اكتسبت هذه المدينة أهميتها من موقعها عند مصب هذا النهير وبفضل وقوعها عند التقاء طرق عديدة تربط فرنسا فى الغرب والمانيا الشمالية والوسطى فى الشرق وعند ماينز يغير الرين اتجاهه بسبب اعتراض كتلة تاونس : Taunus الجبلية إذ يجرى نحو الغرب حتى يجد له منفذاً خلال هذه الكتلة الصلبة التى يجتازها مجرى النهر بعد أن يترك منطقة السهل الأوسط . وتنتمى هذه الكتلة الجبلية القديمة إلى النوع الهرسينى وقد كانت تفصل بين السهل الأوسط لنهر الرين وبين البحار الشمالية وقد ترتب على صلابة صخورها أن مجرى النهر فى هذه المنطقة عبارة عن طريق مائى ضيق سريع التيار مما يؤثر فى صلاحيته للملاحة لدرجة كبيرة وعند أوبرلاهنشتين . ober Lahnsteln يلتقى بالرين رافدة لان lahn وعند كوبلنز Coblenz يلتقى به الموزل Moselle الذى يعتبر أكبر روافد الرين وأعظمها طولا ، وهو يجرى فى واد ضيق يجاوره من الشمال كتلة ايفل . Eifel الجبلية ومن

الجنوب كتلة هنزرك Hunsruck ويمكن إعتباره حلقة الوصل بين هضبة اللورين ووادى الرين الأصلى وقد تأثر جريان نهير الميز . Meuse الذى فقد جزءاً كبيراً من نشاطه وقوته بسببما أصابه نتيجة عمليات الاسر النهرى المتكررة التى استفاد منها كل من الموزل والسين Seine . وقد ترتب على ذلك خلق كثير من الخوانق والفجوات الطبيعية التى تتخلل هذه الهضاب القديمة وفى الوقت ذاته تعتبر الطرق الطبيعية السهلة للوصل بين أجزائها كما هى حال فتحات تول Toul وبارلدوك Barleduc ولولا هذه الفتحات أو الطرق الطبيعية لأصبح من المتعذر مثلا الوصل بين اللورين وحوض باريس . ومما يميز الموزل وروافده (سار Saar وسى Seille ومرته Meurthe) التى تنبع فى هضبة الفوج أنها تفيض فى الربيع بعد ذوبان الثلوج على سفوح مرتفعات منابعها وكذلك تفيض فى الخريف بسبب غزارة الأمطار فى أحواضها العليا[١٠] .

وبعد نقطة التقائه بالموزل يجرى الرين نحو الشمال الغربى فى واد يقع بين كتلة زيبنجبرج Siebengebirge من جهة وايفل من جهة أخرى .

وإلى شمال مدينة بون Bonn يتسع واديه ويتحول إلى منطقة سهلة تأخذ فى الاتساع التدريجى حتى دوسلدورف وبعد هذه الأخيرة يستمر السهل فى الاتساع حتى يبلغ النهر مصبه . وآخر مدينة المانية يمر بها النهر هنا هى أمرخ وعندها يبلغ اتساع النهر ٩٩٢ مترا وارتفاعه عن مستوى البحر ١٨ مترا . ومن الأنهار التى تتصل به فى هذه المنطقة نهر زيج Sieg ويلتقى به عند بون ، ولواديه أهمية كبرى كطريق طبيعى للمواصلات كذلك نهير شترند Strund ويتصل بالرين عند ملهايم Mullheim ومنها ايضاً نهير رهر Ruhr ويتصل به عند دويسبرج : Duisburg ولهذا النهير أهمية خاصة لانه يخترق أغنى مناطق المانيا فى الفحم وكثير من المعادن ومنها ايضا نهير لپ . Lippe الذى يلتقى بالرين عند فيزل Weisel ، وعلى طول امتداد واديه تجرى طرق المواصلات بين وسط المانيا وشمالها من جهة وبلجيكا وفرنسا من جهة أخرى . على أن الرين بعد التقائه بنهيره لب يبدأ فى تغيير اتجاه

مجراه صوب الغرب ويستمر فى هذا الاتجاه حتى يصل إلى حدود هولند حيث هنا تبدأ ظروف تكوين دلتاه العظيمة(١١) .

حـ — اما الرين الأدنى : فيجرى فى منطقة سهلة عظيمة الاستواء ونقصد هنا منطقة الدلتا التى تشمل جزءاً عظيما من هولندا غير أن النهر بعد أن يجتاز الحدود بين المانيا وهولندا يتفرع إلى فرعين فرع يتجه نحو الغرب ويسمى فال . Waal وآخر يتجه نحو الشمال ويحتفظ باسم الرين . وعلى العموم يتعرج مجرى النهر كثيراً فى هذا الاقليم السهلى وتتعدد الفروع الثانوية والمجارى الجانبية . ويلحظ أن الفال يختص بأعظم نصيب من مائية النهر ، ويتابع سيره نحو الغرب حتى يبلغ منطقة تختلط فيها مياهه مع نهر الميز . Meuse فيتحدان معا ويكونان مجرى واحدا ينتهى فى بحر الشمال بمصب متسع يظهر على شكل خليج واسع عظيم . ويخرج من هذا المجرى قرب مصبه فرع يواصل السير نحو الغرب فيمر بمدينة دوردرخت . Dordrecht ثم بعد ذلك يتحد مع نهر ليك . Leek أحد فروع الرين القديم ويكونان معا مجرى واحدا(١٢) ينتهى فى بحر الشمال عند . Hook of Holland .

أما الفرع الآخر وهو المعروف بالرين فيجرى أولا نحو الشمال وقبل أن يصل إلى أرنهم Arnhem يتفرع إلى فرعين فرع يتجه نحو اليمين متتبعاً مجرى قناة صناعية كانت قد حفرت فى الماضى لخدمة بعض أغراض حربية خاصة ، ثم بعد ذلك يتخذ مجرى نهر طبيعى هو اليسل Yessel وهذا الأخير هو عبارة عن ذراع قديم لنهر الرين ينتهى فى الزويدر عند كامبن Kampen أما الفرع الثانى فيجرى من الشرق إلى الغرب . وقبل أن يصل إلى بحر الشمال ينقسم إلى شعبتين تعرف الشمالية منهما بالرين القديم وتمر بمدينتى أترخت Utrecht وليدن Leiden ، وتعرف الجنوبية بمجرى ليك Leek وهذه الشعبة تمر بمدينة روتردام Rotterdam قبل أن تصل إلى بحر الشمال . ومما تجدر ملاحظته أن بحر الشمال قد عمل باستمرار على تغيير معالم شاطئه ، ويظهر أن هذا التغيير والتعديل ما زال مستمراً ونضرب مثلا ان خليج دولارت Dollart قد تكوّن فى فريزلاند سنة ١٢٧٧ م كما ان

ظهور « الزيدر » يرجع إلى الفترة ما بين عام ١١٧٠ و١٣٩٥ م

وفى هذه الفروع العديدة تجرى مياه الرين ببطء شديد نظراً لوجود رواسب عظيمة يأتى بها النهر وروافده من الكتل الجبلية المختلفة التى يتألف من مجموعها حوض النهر وعلى ذلك فإن هذه المجارى المائية تحتاج إلى تطهير مستمر إذا ما أريدت المحافظة على صلاحيتها للملاحة ؛ وإذا ما تركت هذه الرواسب تتراكم فى قاع المجارى ترتب على ذلك انها تعوق المياه عن السير ، وتسبب طغيانها على الأراضى المنخفضة التى تمتد لمسافة طويلة على جوانب هذه المجارى[١٣] . وأن هذه الظاهرة ظاهرة الإرساب العظيم الذى يتطلب دائما عمليات تطهير واسع النطاق ، كذلك طغيان مياه النهر وفروعه على المناطق السهلية ، تشغل بال السكان وبخاصة فى هولند، ويزيد فى تعقيد هذه المشكلة كثرة التغيير والتعديل فى اتجاه المجارى المائية العديدة ، وليس من شك فى أن تجمع الرواسب فى المجرى يضطر المياه إلى الانتقال من مجرى إلى آخر ، ويظل الأمر كذلك حتى يتدخل الإنسان ويفرض إرادته لإخضاع هذه المجارى المائية فى اتجاه ثابت . وقد قدر أن هذه المجارى المائية تحمل إلى هولند سنويا أكثر من ٥٣٠ مليون قدما مكعباً من الرواسب ، وإن نصيب الرين منها يزيد على ٩٠٪ ، وإن كمية المياه التى يحملها النهر وروافده عظيمة جداً حتى إن تصرفه عند لوبت Lobit يبلغ متوسطه أكثر من ٨٣٫٠٠٠ قدماً مكعباً فى الثانية . ومن الطبيعى أن تزداد ظاهرة الانحراف والتغيير فى مجرى النهر فى الجهات المنخفضة المنبسطة كما هى حالته حين تختلط به مياه مجرى الميز . والواقع أن الرين الأدنى ، حين يدخل الأراضى الهولندية ، يوزع مياهه بدون عدل أو نظام فمثلا عند پانردن Pannerden يجرى ٧٠٪ من مياهه فى مجرى الفال على حين الباقى يذهب ليجرى تحت اسم نيدر رين Neder Rhine بفضل عملية تحويل صناعية قام بها الهولنديون من سنة ١٧٠١ إلى ١٧٠٧ م ؛ على إن عملية توزيع المياه من هذين الفرعين تتكرر باستمرار ، وتظهر فروع عديدة جديدة بعضها مجار قديمة للنهر نفسه ، وبعضها الآخر قنوات صناعية بحتة ، حفرت لخدمة بلاد ومدن خاصة أو لتسهيل

عمليات صرف مياه النهر وتقليل حدة فيضانه كذلك حال نهر ميز فإنه يتصل بالقال عند فودرخم Woudrichem ، ولكن بعد ذلك نجد النهر يتفرع إلى عدة فروع وقد جرى العرف على تسمية المجرى المتحد هنا باسم مرڤيد Merwede .

وإلى جانب مصبات الرين والميز يوجد أيضاً مصب الشلد . والحقيقة إن دلتا الرين قد دخل عليها من التغيير والتبديل ما جعلها تختلف عن طبيعتها الأصلية ؛ كما إن حركات القشرة الأرضية وآثار ارتفاعها وانخفاضها ، وتغير مستوى المياه الباطنية ، وارتباط ذلك بالينابيع ، ثم توزيع المستنقعات والبحيرات العميقة أو الضحلة ، كذلك كفاح السكان المستمر للاشراف على المجارى المائيه من جهة ، وللمحافظة على أنفسهم من طغيان البحر من جهة أخرى ، كل هذا له أكبر الأثر فى بيئة الرين الأدنى ، وفى علاقة النهر ببحر الشمال ؛ إذ إنه على الرغم من عمل الإنسان المتواصل لتسهيل العلاقة بين النهر وفروعه وروافده وبين هذه مجتمعة والبحر فإنه كذلك لم يهمل أمر اعداد وسائل الدفاع اتقاء لاخطار كل منها (١٤)

حوض الرين

إذا استثنينا الجزء الأعلى من حوض الرين وهو المنطقة السويسرية التى يجرى فيها النهر بين ثنايا المرتفعات الألبية ، والتى يميزها وجود الأودية الكثيرة العميقة والأنهار الجليدية العديدة ، والبحيرات الكثيرة ، نجد إن حوض الرين يدخل فى جملته ضمن منطقة الالتواءات الهرسينية . وهذه الالتواءات قد تكونت على حافات الكتلة البلطية القديمة وقد تعرضت كثيراً لعوامل التعرية فقلل ذلك من ارتفاعها ، كما إنها تعرضت لفعل حركات القشرة الأرضية فارتفع بعض أجزائها وهبط بعضها الآخر (١٥) . ويمكن تقسيم حوض الرين إلى قسمين كبيرين قسم جنوبى وآخر شمالى :

١ — القسم الجنوبى من حوض الرين

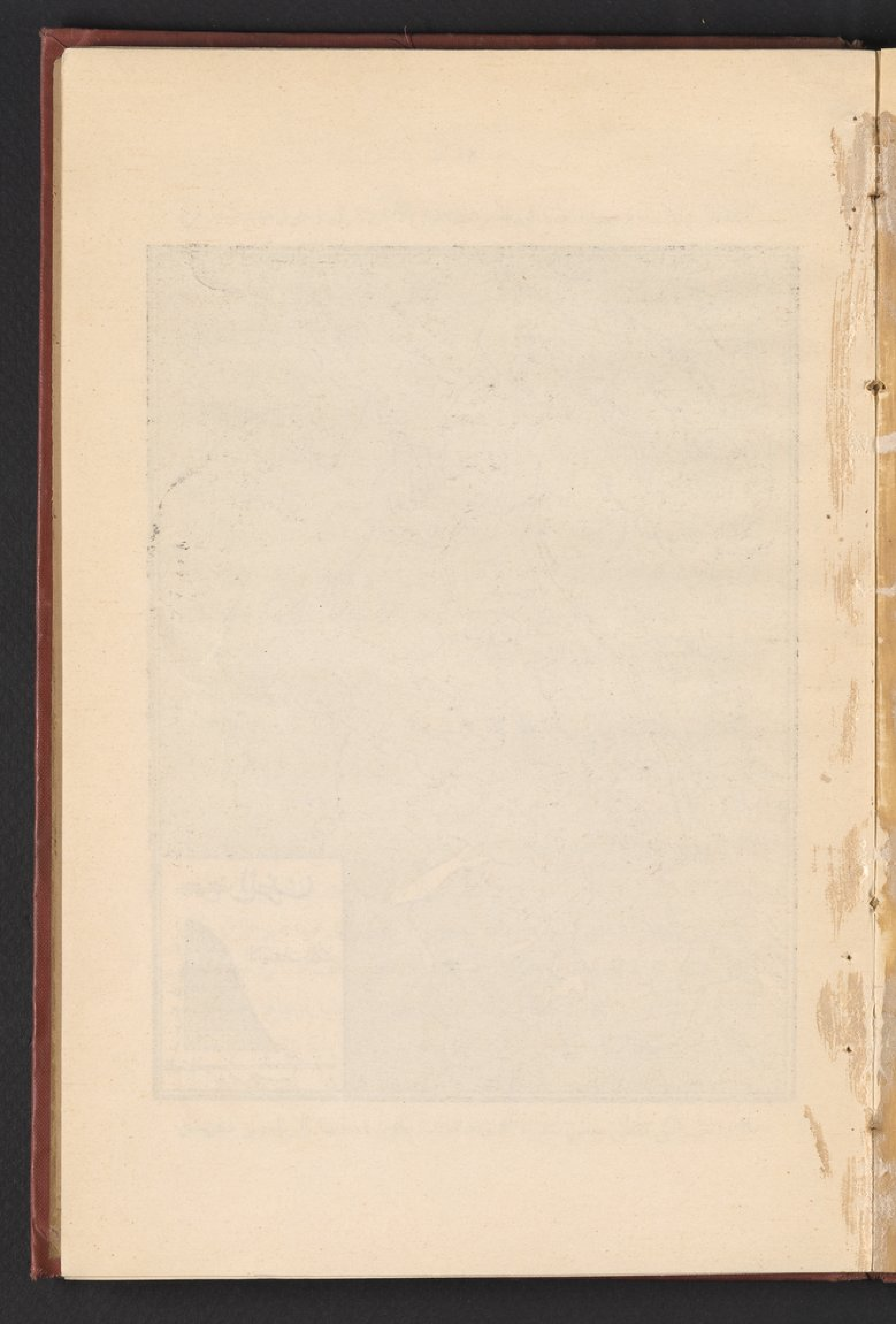
يشغل هذا القسم مساحة واسعة من حوض الرين تمتد من الالتواءات الألبية

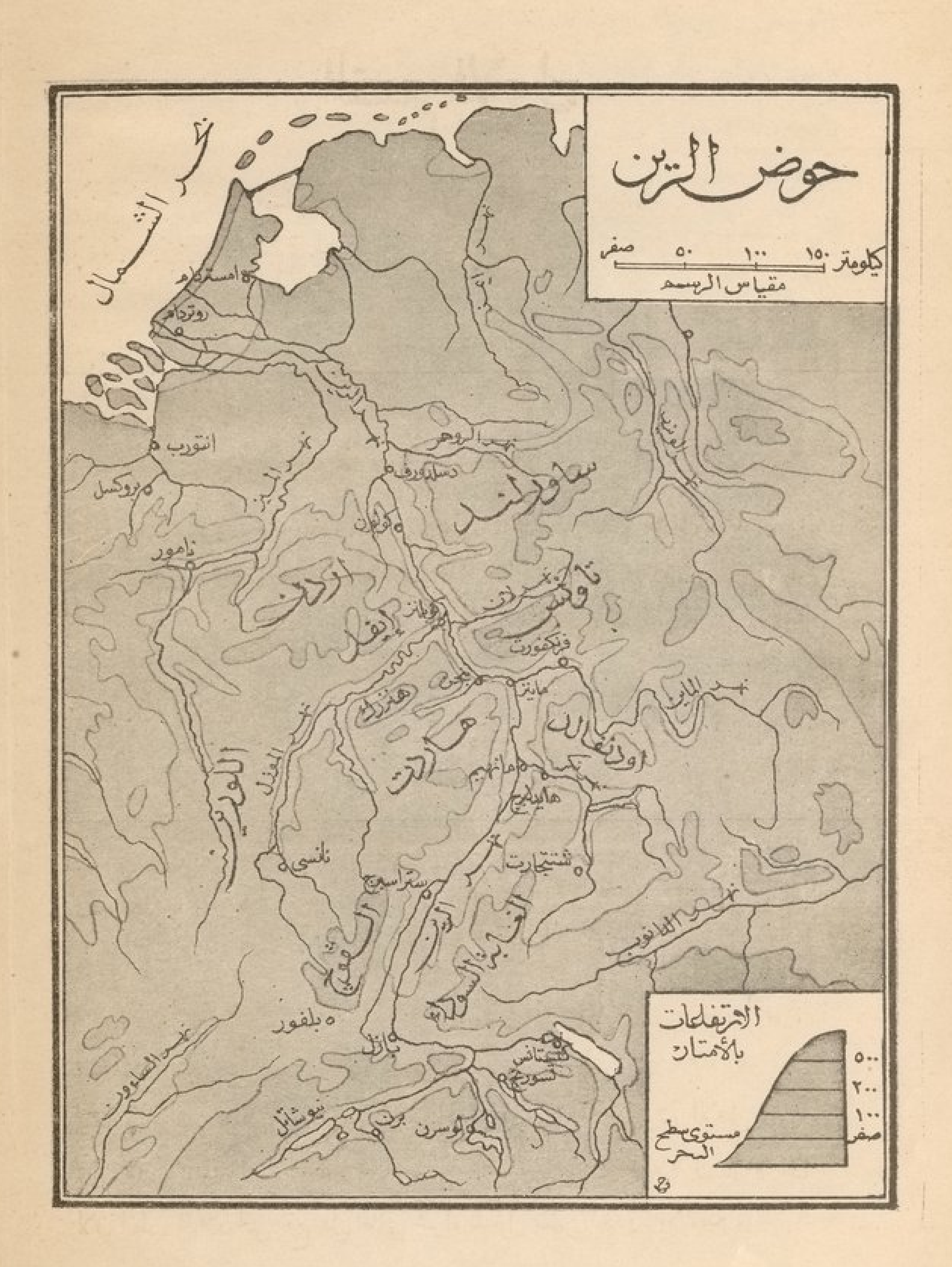
التى تتكون منها جبال چورا فى الجنوب إلى الحافة الجنوبية لكتلتى تاونس وهونسرك فى الشمال وهاتان الكتلتان معاً تكونان الجزء الجنوبى من كتلة هرسينية تعرف باسم الكتلة الشستية(١٦) . وهذا القسم فى جهاته المختلفة عبارة عن كتلة جبلية متشابهة فى بنيتها وتركيبها قد قطعتها عوامل التعرية وحركات القشرة الأرضية إلى كتل صغيرة متجاورة يفصلها عن بعضها كثير من الوديان التى كونتها التعرية المائية أو بعض الأخاديد التى نجمت عن هبوط القشرة الأرضية فى مناطق العيوب والانكسارات . وتنقسم الكتل التى يتألف منها هذا القسم إلى مجموعتين واحدة فى الشرق ، وتشمل كتلتى الغابة السوداء واوُنفالد ، وأخرى فى الغرب وتشمل كتلتى الفوج وهاردث . ويفصل هاتين المجموعتين عن بعضهما واد اخدودى يتكون منه السهل الذى يجرى فيه الرين بين مدينتى بال ومايتز . وفيما يلى أهم المظاهر الطبيعية فى كل قسم من هذه الأقسام .

ا — كتلة الغابة السوداء :

يحد هذه الكتلة من الغرب ومن الجنوب نهر الرين وهى تنحدر نحوه بشدة وتمتد موازية له فى الجزء المقابل لجبال الڤوج ويحدها فى الشمال وفى الشرق نهرا نكر وناجولد .

على إنها تنحدر نحوهما انحداراً تدريجياً وتشبه الغابة السوداء فى مظهرها العام كتلة الفوج التى تواجهها من الناحية الغربية والتى كانت معها تكون ثنية محدبة ينحدر أحد جانبيها نحو الشمال الغربى والآخر نحو الجنوب الغربى . ومن الصعب جداً أن يتعرض الباحث لدراسة إحدى هاتين الكتلتين اللتين انفصلتا إحداهما عن الأخرى بفعل حركات القشرة الأرضية دون أن يتعرض لذكر الكتلة الأخرى ، وذلك لتشابههما فى أغلب المظاهر الطبيعية بسبب انهما ظهرا وكانت نشأتهما واحدة(١٧) . وأهم ما يلحظ على كتلة الغابة السوداء أن حافتها الغربية التى تشرف على نهر الرين تبدو أعظم ارتفاعا من حافة الڤوج التى تقابلها ، كما تبدو أقل




حوض الرين
كيلومتر ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ صفر
مقياس الرسم
بحر الشمال
امستردام
روتردام
انتورب
بروكسل
نامور
دسلدورف
كولون
نهر الروهر
سارلند
كوبلنز
فرنكفورت
ماينز
مانهيم
هايدلبرج
شتتجارت
ستراسبرج
نانسي
بلفور
بازل
كنستانس
زوريخ
برن
لوسرن
نيوشاتل
نهر الدانوب
نهر الماين
نهر الصاون
الارتفاعات بالأمتار
٥٠٠
٢٠٠
١٠٠
صفر
مستوى سطح البحر

انتظاماً منها ، ويرجع السبب فى هذه الظاهرة الأخيرة إلى وجود عدد كبير من الأودية التى تقطع حافة الغابة السوداء .

ومما يسترعى النظر كذلك وجود مدرجات على الحافة الغربية لكتلة الغابة السوداء تصعد من الجهات المنخفضة التى تشغل بطن الوادى إلى الجهات المرتفعة التى تعلو سطح هذه الكتلة . وقد تكونت هذه المدرجات نتيجة لوجود عيوب متوازية هبطت القشرة الأرضية على طول امتدادها[١٨] . ويختلف مظهر الغابة السوداء فى جانبها الشرقى اختلافاً تاماً عن مظهرها فى الجانب الغربى ؛ إذ الحافة المرتفعة التى تقطعها الأودية ، والمدرجات التى تجاور هذه الحافة ، تختفى جميعها ويحل محلها سطح متموج ينحدر انحداراً تدريجياً نحو الشرق ، وتعلوه فى كثير من أجزائه ربى قليلة الارتفاع . كذلك تختلف الأجزاء الجنوبية من الغابة السوداء عن نظيراتها الشمالية فبينما تتعقد التضاريس فى الجنوب نظراً لوجود كثير من الأودية العميقة التى تقطع سطح الهضبة ، تظهر الأجزاء الشمالية أرضاً مستوية قليلة الارتفاع كما هى الحال فى سهول كريخجاو Kraichgau التى تقع فى شمال الكتلة . ويمكن اعتبار وادى نهر كنزج Kinzig حداً فاصلا بين المنطقة الشمالية ذات السطح المستوى والمنطقة الجنوبية التى تمتاز بحدة تضاريسها .

وأهم العوامل التى أثرت فى سطح هـذه المنطقة هى حركات القشرة الأرضية من جهة ثم التعرية من جهة أخرى ؛ فإلى حركات القشرة يرجع السبب فى انفصال كتلة الغابة السوداء عن كتلة الفوج ، ذلك الانفصال الذى جاء نتيجة لحدوث كسرين طوليين هبطت بينهما المنطقة المنخفضة التى يجرى فيها نهر الرين الآن بين كتلتى الغابة السوداء والفوج . وقد حدث هـذا الهبوط كرد فعل لحركة الارتفاع الهائلة التى أصابت القشرة الأرضية والتى نجم عنها ارتفاع السلاسل الالتوائية الحديثة[١٩] .

وإلى التعرية يعزى وجود الأودية العديدة التى قطعت سطح الهضبة . أما الرواسب التى تغطى بعض أجزاء الهضبة فقد تكون معظمها فى العصر الجليدى

عندما طمر الجليد جميع أجزاء الكتلة وتقدم حتى غمر منحدراتها الشرقية(٢٠) وقد خلف الجليد وراءه من الآثار الدالة عليه ركاماته ورواسبه فى جهات عديدة وبخاصة فى المنطقة الشرقية . على أنه بعد أن انتهى العصر الجليدى حلت التعرية المائية محل الجليد فى تشكيل سطح الهضبة ، وقد عظم نشاطها فى نحت تكوينات الكتلة الجبلية بعد أن بلغ وادى الرين مستواه الحالى ، أما بفضل هبوط الأرض نتيجة لحركات القشرة أو بسبب تآكل الطبقات اللينة بفعل التعرية . وقد ترتب على نشاطها أن المجارى المائية التى تنحدر على السفوح القريبة لكتلة الغابة السوداء متجهة نحو الرين أخذت تقطع حافة الكتلة وتعمق مجاريها لدرجة عظيمة ولذا هبط مستواها عن مستوى المجارى المنحدرة على الجانب الشرقى فأسرتها وحولت مياهها صوب الغرب .

أما النباتات الطبيعية التى تكسو سطح الغابة السوداء فهى الغابات المعتدلة أو المراعى . ويلحظ أن الأجزاء الشمالية الواقعة شمالى وادى نهر كنزج Kinzig تغلب فيها الغابات ، أما فى الجنوب فتشغل كل من الغابات والمراعى مساحات متعادلة تقريبا(٢١) . وعلى الرغم من جودة الأخشاب التى تنتجها الغابات الموجودة فى هذه المنطقة فانها بقيت مدة طويلة دون أن تستغل استغلالا كافيا . ولعل السبب فى ذلك كان يرجع إلى قلة عدد السكان . والواقع أن منطقة الغابة السوداء كانت قديما كغيرها من مناطق الكتل الهرسينية من أقل جهات أوربا الوسطى سكانا ، ولكنها تحولت منذ القرون الوسطى فأصبحت فى بعض الاجزاء كثيرة السكان . ولم يكن هذا التحول نتيجة لظهور موارد اقتصادية جديدة فى المنطقة بل أنه جاء نتيجة للمجهود الكبير الذى بذله المستعمرون الجدد الذين جاءوا إلى المنطقة . وكانت أولى الجماعات التى حلت محل الكلث القدماء جماعات الالمانى : Alemanni ، ومن بعدهم جاءت هجرات أخرى من المناطق السهلية المجاورة . وبدلا من أن يستغل هؤلاء المستعمرون الجدد موارد المنطقة من الغابات والمراعى فانهم ظلوا محافظين على نظام الحياة الذى ألفوه فى المناطق السهلية التى جاءوا منها . وفى العصر

الحديث ، وهو العصر الذى نشط فيه استغلال الغابات فى الجزء الشمالى من الغابة السوداء والاستغلال الصناعى فى الجزء الجنوبى ، نجد أن نظم الحياة قد تطورت تبعاً للتطور الاقتصادى الجديد .

وتعتبر منطقة الغابة السوداء شبه منعزلة ، لأن سبل الاتصال الهامة بين شرق أوربا وغربها ، وبين شمالى أوربا وجنوبها ، لا تخترقها بل تدور حولها . ويرجع السبب فى ذلك الى أن المنطقة عبارة عن كتلة صلبة عظيمة الارتفاع ليس بها من الممرات ما يسهل الاتصال ، ولهذا كانت تختلف عن كتلة الفوج التى ساعدتها الطبيعة على وجود بعض الممرات . والى الشمال من الغابة السوداء ، توجد فتحة كريخجاو Kraichgau التى ولو أنها تعلو عن الوادى الأخدودى إلا أنها تمثل طريقا طبيعيا أفضل بكثير من السفوح الشمالية أو السفوح الجنوبية الشديدة الانحدار . وعلى هذا الاساس يمكن اعتبارها مناظرة لفتحة سافرن التى تقع الى شمال الفوج ، والتى تعتبر بدورها من أهم الطرق الطبيعية فى الاقليم (٢٢)

وأهم الطرق الطبيعية الرئيسية التى توجد بجوار منطقة الغابة السوداء ولا تخترقها هى : —

١ — طريق يمتد إلى الجنوب منها ويجرى من الغرب إلى الشرق على طول إمتداد وادى الرين الاعلى ويصل بين فرنسا من جهة وجنوب غرب المانيا من جهة أخرى .

٢ — عدد من الطرق يمتد فى شمال المنطقة من الغرب إلى الشرق ، ويصل كذلك بين فرنسا وجنوب غربى المانيا ووسطها ، وأهمها الطريق الذى يتبع وادى نكر الادنى ، الذى ساعد على قيام هيدلبرج ومانهيم وكذلك الطريق الذى يخترق فتحة فورزهايم : Pforzheim والذى ساعد على أهمية فورزهايم وكارلسروه .

٣ — عدد من الطرق يمتد فى غربها من الشمال إلى الجنوب ويخترق المنطقة المنخفضة التى يشغلها وادى الرين ، وقد ساعدت هذه الطرق على قيام بعض المدن الهامة مثل فرايبرج Freiburg ولار Lahr

وتعتبر هذه الطرق جميعها سبلا هامة للمواصلات ، اتبعتها قديما الهجرات البشرية والغزوات ، وتتبعها فى الوقت الحاضر السكك الحديدية والشبكات المائية التى تربط البلاد المجاورة بعضها ببعض .

ونصيب الغابة السوداء من الحركة النشيطة التى تتبع هذه الطرق فى الوقت الحالى قليل جداً ، ذلك لأن الطرق التى تجتاز الكتلة نفسها من أحد جوانبها إلى الجانب الآخر قليلة ومحدودة وأهم هذه الطرق مايأتى : —

(١) طريق يخدم الجزء الشرقى من الكتلة ويمتد من الشمال إلى الجنوب على طول جزء من المجرى الأعلى لنهر نكر ، وقد ساعد وجوده على أهمية مدينتى توبنجن : Tubingen وروتفايل Rottweil .

(٢) طريق يجتاز الكتلة فى اتجاه شمالى غربى جنوبى شرقى متتبعاً وادى نهر كنزج Kinzig .

(٣) طريق يجتاز الجزء الجنوبى من الكتلة ويمتد من الشرق إلى الغرب وقد ساعد وجوده على أهميــة فرايبرج وغيرها من المدن المجاورة التى تقع عند مخرج الطريق من الحافة الغربية لكتلة الغابة السوداء . غير أن هذه الطرق لا يمكن اعتبارها إلا فروعا ثانوية للطرق الرئيسية التى تمتد على مقربة من الكتلة الجبلية ، إذ أن فائدتها قاصرة على بعض أجزاء محدودة ، كما أن أهميتها لا تعدو كونها أهمية نسبية محلية .

ب — **كتلة الفوج :**

تكون الفوج كتلة جبلية شبيهة بكتلة الغابة السوداء التى تواجهها فى الشرق . وهى تمتد على شكل سلسلة جبلية فى اتجاه شمالى شرقى جنوبى غربى لمسافة تبلغ نحو ١٥٠ ميلا ، يحدها من الشرق وادى الرين وهى تشرف عليه بحافة مرتفعة ، ويحدها من الجنوب فتحة بلفور Belfort التى كان يخترقها نهر الرين قديما قبل أن يتمكن من تغيير مجراه نحو الشمال . ويلحظ هنا أن الفوج تشرف على هذا المنخفض بحافة مرتفعة

ويحدها من الشمال وادى نهر لوتر Lauter وتنحدر اليه الكتلة انحداراً تدريجياً.
أما فى الغرب فان الڤوج تنحدر ببطء حتى تتلاشى وتختفى فى حوض باريس .

والشبه عظيم بين كتلتى الڤوج والغابة السوداء فكلاهما جزء من كتلة هرسينية قديمة ، وكلاهما يقع فى عروض متشابهة ، وكلاهما تغطيه الغابات عند سفوحه الدنيا، والمراعى فى أجزائه المرتفعة ، وكلاهما يمتاز بوجود ربى قبابية الشكل تعلو سطحه ، وبوجود حافة تنحدر فجأة نحو الرين وجانب ينحدر انحداراً تدريجياً فى الناحية المقابلة[٢٣] . وتختلف الجوانب الغربية للفوج عن الشرقية من الناحية المناخية ، إذ الأولى أكثر دفأ وأغزر مطراً من الثانية ، ولهذا السبب كانت الأنهار التى تنبع فى الأجزاء الغربية من الفوج ، وتنحدر على جوانبها كثيرة وطويلة ، ومن أهمها الموزل ونهيراته الميرثة والسار . أما الحافة الشرقية فلاينحدر عليها سوى أنهار قليلة قصيرة ومن أشهرها نهر إل ill . وبسبب قصر هذه المجارى المائية لم تتمكن من أن تقطع حافة الفوج التى تظهر أكثر انتظاما من حافة الغابة السوداء المقابلة لها .

وقد تأثرت كتلة الفوج كثيراً بالتعرية فى العصور الجليدية ، ومن آثارها فيها الركامات الكثيرة العديدة التى خلفتها[٢٤] . وقد تأثرت كذلك بالتعرية المائية وكان تأثرها بهذا النوع من التعرية أكثر من تأثر الغابة السوداء به . لهذا كله كانت الأودية التى تقطع سطح الفوج أكثر عدداً وأهمية من تلك التى تقطع سطح الغابة السوداء ، ثم انها فى الوقت ذاته أعظم اتساعا وأكبر عمقاً مما يدل على حدة التضاريس فى منطقة الفوج .

ومن الآثار التى ترتبت على نشاط عوامل التعرية أن كثرت الممرات والأودية الطبيعية التى تتبعها سبل الاتصال . وعلى طول أودية الموزل وميرثه والسار تمتد طرق المواصلات فى اتجاه شمالى جنوبى تقريباً ؛ أما فى المنطقة المعروفة بعنق سافرن Col de Saverne فتمتد سبل الاتصال من الشرق إلى الغرب[٢٥] ، وتجرى هنا السكك الحديدية بين حوضى باريس وستراسبورج والقنوات المائية بين الرين والمارن. ولهذا كله يمكن القول إن كتلة الڤوج أقل عزلة من نظيرتها كتلة الغابة

السوداء . وإلى جانب هذه توجد طرق ثانوية من أهمها :

١ — طريقاً يخترق ممر بوسانج Bussang ويصل بين رنيرمون Runurumont وثان Thann

٢ — طريق يخترق ممر شلخت Schlucht ويؤدى إلى مدينة منستر Munster

٣ — طريق يخترق ممر بون أوم Bonhomme ويربط بين سنت دى St. Die وكلمار Colmar

حـ — كتلة أودنفالد Odenwald :

هى الأخرى كتلة هرسينية قديمة تكون جزءاً من حوض الرين الأوسط . ويحدها فى الجنوب سهل كريخجاو الذى يفصلها عن كتلة الغابة السوداء المرتفعة . ويحدها فى الشمال وادى نهر ماين الذى يفصلها عن كتلة هرسينية مماثلة هى كتلة سبترارت : Spezzart . وتمتاز كتلة أودنفالد ببساطة التضاريس ، فهى تظهر كمنطقة منبسطة لا يميزها عن سهول كريخجاو ، التى تقع فى جنوبها إلا ارتفاعها ووجود الغابات التى تغطيها وتميزها عن الأراضى السهلية التى تجاورها[٢٦] وهى شبيهة بتلك الغابات التى تغطى الجزء الشمالى من الغابة السوداء أى منطقة فورزهايم . ويمكن اعتبار فتحة فورزهايم التى تؤدى من كارلسرو إلى فورزهايم الحد الشمالى لمرتفعات الغابة السوداء[٢٧] وتبلغ نسبة الأراضى التى تغطيها الغابات فى منطقة أودنفالد ٧٥ ٪ من المساحة الكلية وقد تزيد فى بعض المناطق حتى تصل لى ٩٠ ٪ ويكثر السكان فى المناطق التى أزيلت منها الغابات عادة ولو أنه يمكن القول أن كثافتهم محدودة إذ لا تزيد عن ٥٠ نسبة فى الكيلو متر المربع ويلحظ أن هذه الكثافة ثابتة منذ زمن طويل مما يدل على أن المنطقة ليست جذابة ويعيش السكان فى شبه عزلة ويتبعون نظام حياتهم القديم دون أن يدخلوا عليه تغييرات رئيسية[٢٨] .

والمناطق الوحيدة التى يزداد فيها النشاط البشرى هى منطقة وادى نهر نكر

ومنطقة وادى نهر ماين . أما الأولى فقد زاد نشاطها نتيجة لوجود محاجر كثيرة على جانبي الوادى تؤخذ منها الأحجار الرملية . أما الثانية فأرضها غرينية ساعدت على نهوض زراعة الحبوب . ويضاف إلى ذلك أنهما ممران طبيعيان ساعد نهرا نكروماين على وجودهما فاجتازتهما الهجرات والغزوات منذ الأزمان القديمة ، وتبعتهما سبل الاتصال فى جميع العصور التاريخية(٢٩) .

وقد تأثر هذان الواديان الانكساريان بفعل التعرية التى استطاعت أن تمحو الحافات التى كانت تشرف عليهما من كلا الجانبين ، وبهذا ظهرت الأرض مستوية . وقد نشطت فى حوض النكر عملية الأسر النهرى وكان أثرها عظيما بصفة خاصة فى حالة النهيرات العديدة التى كانت تفرغ مياهها فى نهر الطونة ، وعلى ذلك أصبحت أودية هذه الروافد الكثيرة عاملا قوياً فى تسهيل حركة الاتصال بين حوضى النهرين ، وكان لذلك أكبر الأثر فى نواحى النشاط البشرى فى هذا القسم من الحوض ويجرى نهر مملنج Momling على طول عيب حدث فى كتلة أودنفالد . ويمكن القول إن هذا المجرى الكبير هو الطريق الوحيد الذى يجتاز الهضبة ، وقد قامت عليه مدينة ميشيلشتات Michelstadt منذ القرن الثالث عشر ، كما نشأت مدن أخرى تضخم بعضها وازداد عدد سكانها ويتبع هذا الطريق فى الوقت الحاضر السكك الحديدية التى تنقل غلات الغابات من مناطق انتاجها فى داخل الهضبة وفى نقط الوادى المتعددة إلى حوض الماين نفسه .

وتمتد هضبة أودنفالد نحو الشمال فى منطقة سپترارت التى تشبهها فى جميع المظاهر الطبيعية . ولا يستثنى من ذلك إلا الأجزاء الغربية من هذه الهضبة الأخيرة حيث تظهر حدة التضاريس بشكل واضح ويحل التباين فى السطح محل الاستواء العام الذى يمتاز به سطح هضبة أودنفالد(٣٠) . وتمتاز الأودية التى توجد فى منطقة سپترارت ، بكثرة سكانها الذين تزيد كثافتهم حتى تبلغ ثلاثة أمثال الكثافة فى جهات هضبة أودنفالد ، وبخاصة جهاتها الشرقية . وقد نتج عن كثرة السكان وازدحامهم فى منطقة سپترارت أن أزيلت الغابات من مساحات كبيرة ، وحلت محلها

(٢)

الزراعة وبذا لم يبق من الغابات إلا ما يغطى نصف مساحة الأرض تقريباً . ويرجع السبب فى اجتذاب هذه المنطقة للسكان إلى طبيعة الأرض فيها فالكتلة الهرسينية هنا قد أزالت التعرية عنها التكوينات الرملية التى كانت تغطيها ، وبذا ظهرت الصخور الأولية على سطح الأرض ، وهى تحوى عناصر هامة متى تفتتت أعطت تربة خصيبة صالحة للزراعة .

وتعتبر منطقة أودنفالد بوجه عام منطقة فقيرة إذا ما قورنت بمنطقة سپتزارت أو المناطق الأخرى المجاورة ؛ ولا يزرع السكان فى هذه المنطقة إلا مساحات ضيقة محدودة . وليس من شك فى أن هذا لا يساعد على اجتذاب السكان وزيادة عددهم ؛ غير أن نشاط الحياة الاقتصادية فى الأقاليم المجاورة للهضبة ، وبخاصة فى منطقة سهل الرين الأوسط كان له صدى فيها جاوبته مناطق متعددة من الهضبة . وأهم هذه المناطق جميعها تلك النقط التى تلتقى عندها الأودية ، وقت خروجها من الهضبة ، بأطراف السهل المجاور . وقد أصبحت هذه النقط ، بفضل موقعها فى مركز متوسط بين الكتلة الجبلية من جهة والمنطقة السهلية من جهة أخرى ، مراكز الاتصال بين اقليمين مختلفين وعلى هذا الأساس نجحت فى أن تجتذب إليها كثيراً من السكان ، وأخذت تتضخم شيئاً فشيئاً حتى تحولت إلى مدن تجارية كبيرة . ومن أمثلة هذه المدن هيدلبرج Heidelberg ، وقد نشأت عند مخرج وادى نكر والتقائه بسهل الرين وقد ظلت هذه المدينة عاصمة لمقاطعة پلاتينات مدى خمسة قرون .

هذه الظاهرة ونقصد ظاهرة قيام المدن عند التقاء الأودية التى تخرج من المنطقة الجبلية بأطراف سهل الرين ، ثم تضخمها فيما بعد ، لا تقتصر على المنطقة التى تلتقى عندها كتلة أودنفالد بسهل الرين الأوسط ، بل إنها عامة وتلحظ عند التقاء سهل الرين بالأودية التى تخرج من الغابة السوداء أو عند التقائه بالأودية التى تخرج من الفوج أو الأودية التى تخرج من كتلة هاردت وفلزرفالد .

د — كتلة هاردت وفلزرفالد "Hardt and Pfalzerwald" :

تمتد هذه الكتلة غربى نهر الرين فى الناحية المقابلة لهضبة أودنفالد ، وتعتبر فى الواقع جزءاً مكملا لها على نحو ما تكمل الفوج كتلة الغابة السوداء(٣١) . وهذه الهضبة كغيرها من الكتل الهرسينية الأخرى تحيط بها العيوب من كل جهة ، وقد هبطت الأراضى المجاورة على طول هذه العيوب ، وبقيت كتلتها مرتفعة نسبياً . وقد صحب الهبوط اندفاع هذه الكتلة من أسفل ، بفعل القوى الباطنية ، فارتفعت قليلا غير أنه يلحظ أن هذه القوى التى دفعتها لم تكن من القوة بحيث ترفعها إلى علو يعادل ارتفاع كتلة أودنفالد . ويعلو سطحها بعض المرتفعات وهذا يجعلها تختلف فى مظهرها عن كتلة أودنفالد المستوية السطح تقريباً ، ويبلغ متوسط ارتفاعها نحو ٦٠٠ متر فوق سطح البحر(٣٢) .

والمجارى المائية التى تنحدر فوقها تمتد بمنابعها نحو روافد الموزل وتهددها بالأسر . ويلوح أن نهر لاوتر Lauter قد نجح فى أسر المجرى الأعلى لرافد أرب Erb الذى ينحدر مجراه نحو نهير السار . وتشغل هضبة الهارت معظم الجزء الجنوبى من منطقة بلاتينات ، وانحدارها تدريجى نحو الشمال والغرب ، لكنها فى الشرق تنحدر فجأة نحو نهر الرين ، ويمتاز جانبها ، الذى تشرف به على سهل الرين ، بأن المجارى المائية قد تمكنت من قطعه وجعلته عبارة عن كتل منعزلة يظهر بعضها على شكل مسلات رفيعة تعطى للمنطقة طابعاً خاصاً يميزها عن غيرها . ويكوّن منخفض لاندشتول Landstuhl طريقاً طبيعياً عبر هذه الهضبة إلى قيصر سلوترن Kaiserslautern وإلى هذا الطريق يرجع سبب تقدمها وأهميتها(٣٣) .

وتغطى الغابات منطقة بلاتينات وهى تنتج أنواعا جيدة من الخشب غير أنها لم تستغل الاستغلال الكافى نظراً لقلة السكان فى الأقاليم الداخلية من الهضبة . ويلحظ أن السكان يتكاثر عددهم فى هضبة بلاتينات إلا عند حوافها حيث يتجمعون فى القرى والمدن العديدة التى قامت عند مخارج الأودية والتقائها بأطراف

سهل الرين : ومن أمثلة هذه المدن الكبيرة مدينة نيوشتات Neustadt التى تقع على مخرج الطريق الذى يشقه نهر سبير Speyer عند نقطة التقاء وادى هذا النهر بسهل الرين . وتعتبر هذه المدينة سوق المنطقة ، إذ تتجمع فيها غلات الغابات وثمار الكروم والفاكهة التى تكثر فى الوادى . وقد نشأت فيها عدة صناعات تعتمد فى نهضتها على استخدام قوى المياه المتدفقة فى مجارى الأنهار ، وعلى سهولة استيراد الأخشاب الضرورية من الغابات المجاورة (٣٤)

٥ — سهل الرين الأوسط :

يمتد هذا السهل من جبال چورا جنوبا حتى كتلة تاونس شمالا ، وهو عبارة عن الوادى الأخدودى الذى يجرى فيه نهر الرين مابين مدينتى بال ومايز ، والذى تحده من كلا جانبيه الكتل الهرسينية القديمة التى سبقت الإشارة إليها ونقصد كتلتى الغابة السوداء وأودنفالد فى الشرق وكتلتى الفوچ وهاردث فى الغرب . ويتراوح اتساع هذا السهل بين عشرين وأربعين ميلا ويبلغ طوله نحو ١٨٠ ميلا . وقد تكونت هذه المنطقة منذ زمن قديم إذ كان هناك خليج بحرى طويل يمتد من الجنوب حتى السفوح الجنوبية لكتلة تاونس ، ولم يكن هناك أى اتصال بحرى بين هذا الخليج وبين البحار الشمالية، ثم أخذت الرواسب تملأ هذا الخليج ومن بينها التكوينات الملحية والرملية والطفلية التى تظهر بوضوح فى بعض جهات السهل (٣٥) . كذلك قد ترتب على امتلاء الخليج بالرواسب أنه أخذ يجف بالتدريج حتى تحول إلى بحيرة ثم إلى سهل رسوبى ، وقد ظل هذا السهل مغلقاً من جانبه الشمالى حتى عصر البليوسين Pliocene . وقد كان الرين فى هذا العصر ينبع من مرتفعات ثاونس فى الشمال ويجرى نحو الجنوب حتى إذا ما بلغ فتحة بلفور سار فيها نحو الجنوب الغربى متجهاً نحو الرون . غير أنه فى هذا العصر حدثت حركات فى القشرة الأرضية كان من نتائجها أن ارتفعت المنطقة الجنوبية من السهل ، وهى المنطقة المجاورة لكتلة الغابة السوداء ، بحيث صارت أكثر ارتفاعا من المنطقة الشمالية

ونقصد منطقة هس Hesse . وقد غير الرين مجراه تبعاً لهذا الارتفاع فصار يجرى من الجنوب نحو الشمال ، واستطاعت مياهه منذ ذلك الوقت حتى العصر الجليدى أن تحفر الوادى الذى يجرى فيه النهر الآن فى منطقة الكتلة الهرسينية التى كانت تفصله أولا عن بحر الشمال ، كما استطاعت أن تزيل كثيراً من الرواسب البحرية التى كانت تغطى السهل فى منطقة هس . كذلك أمكن نهر الرين خلال العصر الجليدى أن يكوّن فى منطقة بال وفى غيرها من المناطق عدداً من المدرجات النهرية كنتيجة لدورات متعاقبة من النحت والارساب . أما فى العصر الحديث فقد استطاع النهر أن ينشر رواسبه الغرينية فى مناطق عديدة من السهل كما إنه استطاع أن يزيل كثيراً من الرواسب القديمة والحديثة على السواء .

وفى الجملة يمكن القول إن سهل الرين يختلف عن المناطق الهرسينية المحيطة به وتميزه عنها أمور كثيرة يمكن تلخيصها فيما يلى : —

١ — يكوّن السهل وحده طبيعية ذات مظهر بسيط على حين تختلف المظاهر الطبيعية للكتل الهرسينيه من جهة إلى أخرى .

٢ — بينما نجد السهل يمثل أرضاً منبسطة ساعدها كل من موقعها الجغرافى واستواء سطحها على اتخاذها منذ القدم كطريق للهجرات ومركز للنشاط البشرى ، نجد الكتل الهرسينية ، نظراً لأرتفاعها وقلة الفجوات والممرات التى تساعد على إجتيازها ، ظلت منعزلة عن العالم ولذلك قل سكانها وبقيت فيها أساليب الحياة القديمة دون أن تتغير كثيراً ، وظلت غاباتها دون أن تستغل الاستغلال الكافى .

٣ - بينما تظهر تربة السهل خصبة وسخاؤها قد أجتذب إليها المستعمرين منذ القدم نجد أن التربة على المرتفعات فقيرة نسبياً ، وقد كان ذلك سبباً فى تأخير استثمارها وتنفير السكان منها .

٤ — بينما يكون مناخ السهل دفيئاً معتدل الأمطار كنتيجة لامتداده بين حافتين مرتفعتين فى شرقه وغربه ، الوضع الذى يحجب عنه أمطار الرياح العكسية الغربية ويحميه من برودة الرياح الشمالية ، نجد أن الكتل الهرسينية ، نظراً لارتفاعها

وتعرض سطحها شديدة البرودة غزيرة الأمطار .

هذه المميزات الطبيعية التى ترتبط بالسطح والمناخ والنبات جعلت من سهل الرين منطقة ممتازة وسط الكتلة الهرسينية ، وساعدت خيراتها على إجتذاب الحيوان والإنسان منذ أقدم العصور(٣٦) ، غير أنه يجب أن نلحظ أن جهات سهل الرين تختلف فيما بينها ومن أهم العوامل التى تميز بعضها عن بعض مايلى :

١ — **نوع التربة** : — لما كانت التربة تختلف من منطقة لأخرى تبعا للظروف الطبيعية التى أثرت فى تكوينها فان الحياة النباتية التى تتأثر كثيراً بها لا ينتظر أن تكون واحدة فى جميع الجهات ، فمثلا التربة الملحية التى توجد فى بعض المناطق لاتصلح كثيراً لنمو النباتات ولذلك تبقى فى معظم الأحيان قاحلة مجدبة ، كما أن تربة اللويس التى توجد فى بعض أجزاء السهل وكذا التربة الغرينية فانهما يساعدان بما اشتهرتا به من الخصوبة على قيام الزراعة ، وترتب على ذلك أن أصبحت الجهات التى يسودها أحد هذين النوعين مناطق الانتاج الزراعى الكثيف . أما التربة الحصوية أو الرملية التى توجد فى مناطق كثيرة والتى لاتساعد على نهوض الزراعة فانها تكون عادة مغطاة بأنواع من الغابات .

٢ — **صرف المياه** : — فى بعض جهات السهل لاتنصرف المياه تماماً بل تغطى مساحات واسعة وتستقر فيها على صورة مستنقعات ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن النهر لم يوزع رواسبه فى جهات السهل المختلفة توزيعاً منتظما ، وإلى أنه كثيراً مايغير مجراه . وقد نتج عن العامل الأول وجود نطاقات مرتفعة فى بعض جهات السهل تتكون من حصى وحصباء ورمال تجاورها جهات منخفضة تتكون من رواسب من الطين والملح . وإلى هذه الجهات المنخفضة تتسرب مياه النهر فتغمرها وينتج عن ذلك ظهور مستنقعات واسعة . أما العامل الثانى فقد نتج عنه وجود عدد كبير من المجارى التى هجرها النهر وفضل عليها غيرها ، وهذه نظراً لأنخفاضها تمتلىء بالمياه كلما غمرها الفيضان . وعلى هذا فان المنطقة التى تحف بالنهر على كلا جانبيه هى فى الحقيقة منطقة غير مأهولة يتعذر فيها أن تقوم المدن ؛ إذ أن مياه النهر

كثيراً ماتغمرها وستبقى هذه المنطقة على ماهى عليه حتى يمكن التحكم فى مياه النهر وحصرها بين جسور صناعية ، كما حدث فى بعض أجزاء المجرى . وتعتبر هذه المنطقة التى تغمرها مياه الفيضان حداً فاصلا بين منطقتين من السهل تمتدان فى محاذاة النهر من الشمال الى الجنوب[٣٧] ، وتقع احداهما فى الغرب وهى أكثر اتساعا وأقل أمطاراً وتقع الثانية فى الشرق وهى أقل اتساعا وأعظم أمطاراً . وترتبط كل من هاتين المنطقتين بالمناطق الجبلية التى تجاورها بروابط اقتصادية وسياسية أكثر توثقاً من الروابط التى تربط الواحدة منها بالأخرى . ولهذا يمكن القول بأن النهر يجب اعتباره هنا حدا طبيعيا فاصلا[٣٨] .

والنقط التى يتم عندها اتصال كل من هاتين المنطقتين اللتين تمتدان على جانبى النهر بالمناطق الجبلية المجاورة تقع كما ذكر سابقاً عند مخرج الأودية من هذه المرتفعات ، وعندها قامت المدن التى نمت وترعرعت وأصبحت من أهم مراكز النشاط البشرى فى هذا القسم من الحوض . وتظهر هذه النقط فى مجموعها على شكل شريطين طوليين يمتد أحدهما عند الأطراف الشرقية لسهل الرين ويمتد الآخر عند أطرافه الغربية . ونظراً للنشاط المطرد الذى يسود هاتين المنطقتين أوبالأحرى هذين الشريطين تقدمت سبل المواصلات على امتدادهما من الشمال إلى الجنوب لتربط بين جميع المراكز التجارية والصناعية التى نشأت على امتدادهما . وقد أطلق عليها الألمان لفظ Bergstrasse للدلالة على المظهر العام لمواقعها . وأهم الوحدات الإدارية والسياسية التى ينقسم إليها سهل الرين هى (١) بريسجاو Breisgau (٢) بادن Baden (٣) هس Hesse (٤) بلاتينات Platinat (٥) واللورين[٣٩]

أما بريسجاو Breisgau فهى إلى حد كبير شبيهة فى مظاهرها بالأودية الجبلية السويسرية ، إذ هى عبارة عن شريط ضيق بين الرين والغابة السوداء وتغطيها تربة اللويس الخصبة ، ولذلك أصبحت إقليما زراعياً عظيما تبدو عليه دلائل الرخاء وعلامات اليسر وتبلغ فيه نسبة كثافة السكان نحو ١٥٠ نسمة فى الكيلومتر المربع . وإلى الشمال من هذه المنطقة توجد منطقة بادن Baden وهى أقل خصباً من منطقة

بريسجاو ، وذلك لانعدام تربة اللويس ووجود تربة رملية حصوية بدلا منها ، وتغطى الغابات بعض أجزاء سطحها على حين تظل بعض الأجزاء قاحلة ، أو قد تظهر فيها المستنقعات . ويقل عدد السكان هنا عنه فى إقليم بريسجاو ، ويتكاثر عددهم وتقترب قراهم ومدنهم حيث توجد التربة الخصبة . ويشتغل معظم السكان عادة بالإنتاج الزراعى ومن أهم الغلات الزراعية الطباق ومنتجات الكروم والفاكهة[40]

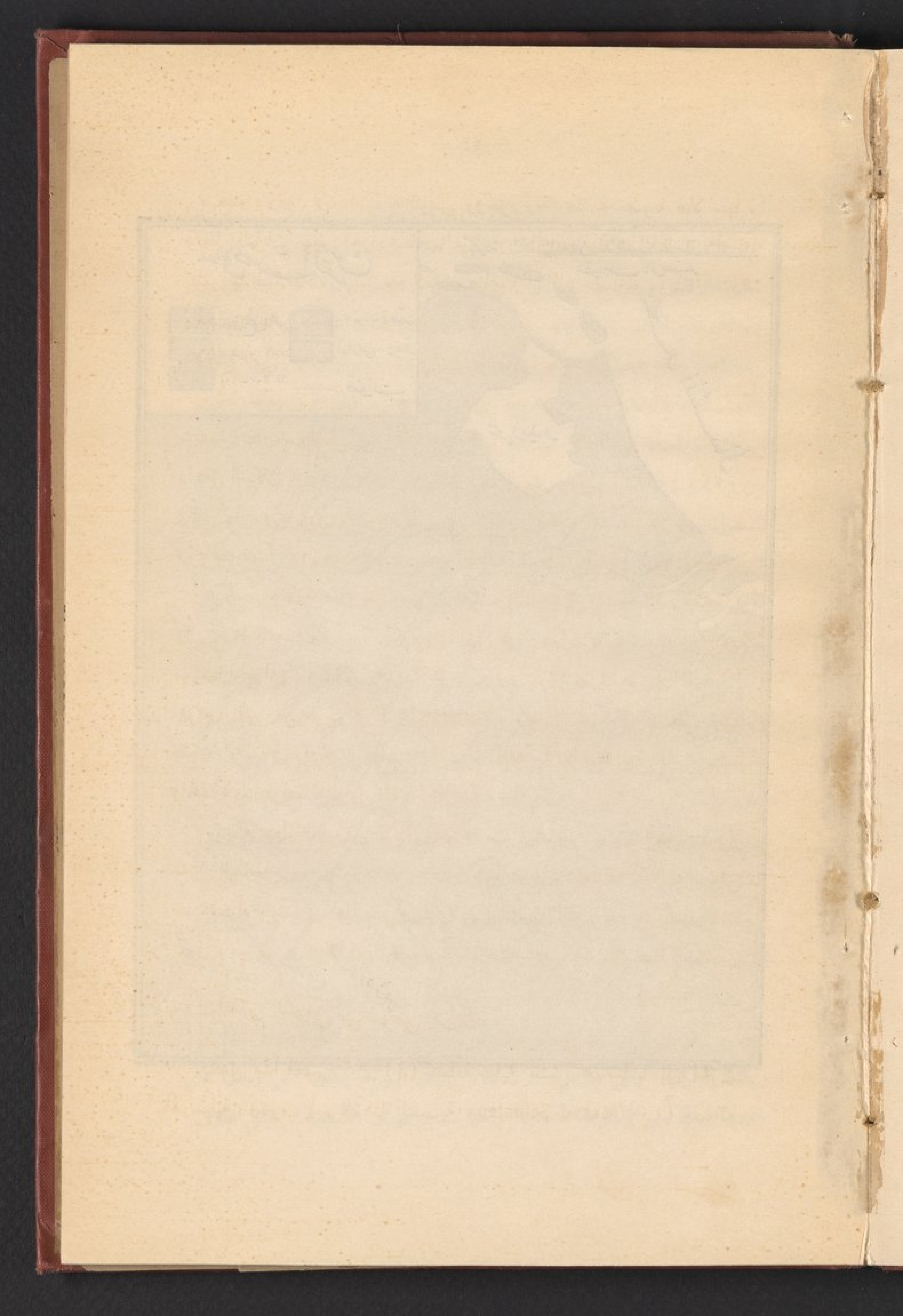
أما منطقة پلاتينات التى تقابل منطقة بادن فهى عظيمة الاتساع ، ولكنها شديدة الجفاف ، وتغطى تربة اللويس أجزاء واسعة منها ؛ وبسبب خصوبة الأرض يشتغل السكان بالزراعة ويكثر انتاج القمح وغيره من الحبوب ومنتجات الكروم والفاكهة . ويجرى فى پلاتينات كثير من المجارى المائية ، وقد حفر كل منها لنفسه واديا منخفضاً . وفى هذه الأودية يتجمع السكان ويتركز النشاط البشرى .

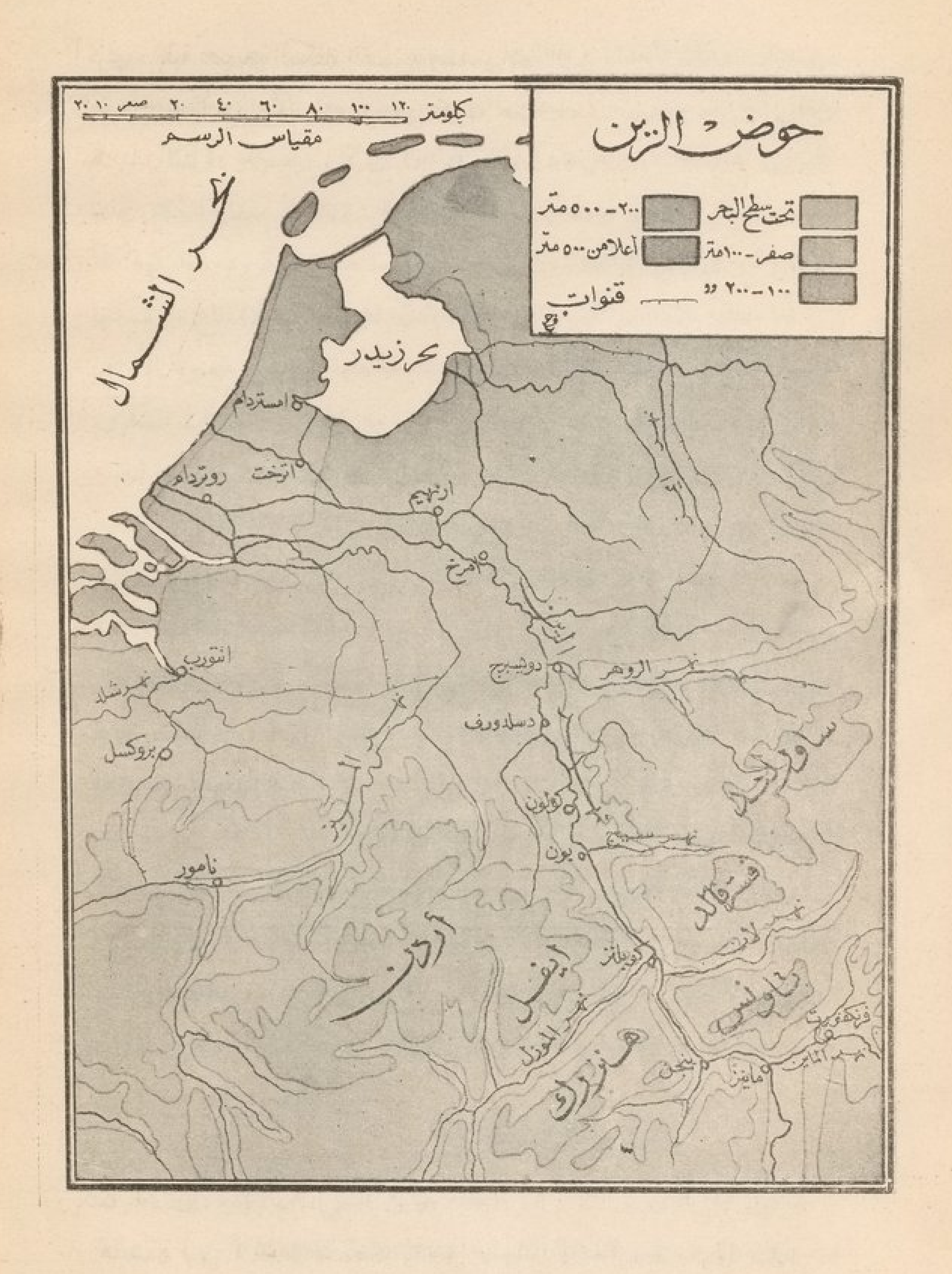
وتوجد منطقة هس فى أقصى شمال السهل ، ويمكن اعتبارها أغنى المناطق وأكثرها تقدما ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى غنى تربتها واعتدال مناخها وأهمية موقعها الجغرافى . وبفضل وقوعها على نهر الرين ارتبطت بالأجزاء الشمالية من حوض النهر عن طريق ڤتراڤى Vetteravie ، وبفضل نهر ماين ارتبطت شرقا بالبلاد الواقعة فى واديه . وقد عرف الرومان القدماء أهمية هذا الموقع فاستعمروها واتخذوا فيها قواعد لنشر نفوذهم وحضارتهم وتجارتهم .

وتشبه منطقة اللورين أقليم بريسجاو من حيث إنها شريط ضيق يمتد من الشمال إلى الجنوب ، وكذلك من حيث إنها تنحصر بين منطقة المستنقعات التى تغمرها مياه الفيضان ، والمنطقة الجبلية التى تتألف من الفوج ، ويضاف إلى ذلك كون تربتها من نوع اللويس الخصيب الذى يساعد على الاشتغال بحرفة الزراعة .

٢ — القسم الشمالى من حوض الرين :

يشمل هذا القسم : — (ا) منطقة جبلية تنتمى مرتفعاتها إلى الحركة الهرسينية ، وتعرف باسم الكتلة الشستية Massif Schisteux (ب) ومنطقة





حوض الرين
تحت سطح البحر
صفر ـ ١٠٠ متر
١٠٠ ـ ٢٠٠ "
٢٠٠ ـ ٥٠٠ متر
أعلا من ٥٠٠ متر
قنوات
كلومتر ١٢٠ ١٠٠ ٨٠ ٦٠ ٤٠ ٢٠ صفر ١٠ ٢٠
مقياس الرسم
بحر الشمال
بحر زيدر
امستردام
اوترخت
روتردام
ارنهيم
انتورب
نهر شلد
بروكسل
نامور
نهر الروهر
دسلدورف
كولون
بون
نهر لان
كوبلنز
اردن
ايفل
نهر الموزل
هنزروك
ماينز
نهر الماين
فرنكفورت
تاونس

أخرى سهلية تمتد بين الكتلة الشستية وساحل بحر الشمال .

١ — **وتتألف الكتلة الشستية** من مجموعة هضاب وهضيبات متجاورة ولو أن بعض الخرائط قد تظهرها على شكل كتلة واحدة مندمجة الأجزاء[٤١]. وأهم هضاب هذه المجموعة تاونس Taunus وفسترفلد Westerwald وروترجبرج Rotter Gebirge وتقع جميعها شرقى مجرى النهر . أما هنزرك Hunsruck وايفل Eifel وأردن Ardennes فتقع فى غربيه . وأهم ما يسترعى النظر من مظاهر هذه الكتلة ما يلحظ من الفرق الواضح بين الجهات المرتفعة التى يتراوح ارتفاعها بين ٤٠٠ و ٨٠٠ متر فوق سطح البحر والجهات المنخفضة التى تتكون منها السهول وبطون الأودية . وفى الجهات العالية التى يتكون منها سطح هذه الهضاب لا يلحظ اختلاف كبير فى المظهر العام الطبيعى من جهة إلى أخرى . وقد ترتب على شدة برودة المناخ وغزارة الأمطار ، أن الغابات تغطى مساحات واسعة على حين تظهر المراعى الجيدة فى الأجزاء الباقية . وعلى ذلك يندر ظهور الأراضى الزراعية ، ويقل عدد السكان ، وتتباعد القرى ويبدو المنظر العام موحشاً إذا ما قورن بنظيره فى المناطق السهلية المجاورة التى تعج بالسكان وتموج بنواحى النشاط الزراعى والصناعى . على أن الزراعة التى تقوم فى هذه البقاع المحدودة من هذه الهضاب يغلب عليها إنها من النوع القديم الذى يعمد الزراع فيه إلى ضرب من الدورات الزراعية تترك فيه الأرض بوراً مرة كل ثلاثة أعوام كى تسترد الأرض خصوبتها بعد اجهادها . أما الحركة التجارية فى هذه الجهات المرتفعة فهى محدودة للغاية ، كذلك الاتصال بين القرى فهو محدود أيضا ، إذ لا تعدو وسائله أبسط طرائق النقل البرى . وعلى هذه الأساس بقيت المنطقة فى حالة شبه عزلة عما جاورها .

هذه هى حالة الجهات المرتفعة . أما الجهات المنخفضة التى تضم مناطق السهول والوديان فحالها يختلف عن ذلك كثيراً إذ تتعدد هنا نواحى النشاط البشرى ويكتظ السكان ، وعلى شواطىء الرين تقوم الموانى النهرية العظيمة التى يربطها بما جاورها شبكة من الخطوط الحديدية والقنوات والمجارى الملاحية . وعلى طول

الأودية المختلفة تقوم القرى والمدن ، وقد امتدت إلى جوانب المجارى المائية أو على سفوح الجبال تجاورها الحدائق وتحيط بها الحقول الكروم وبساتين الفاكهة . ويبدو من تعددها ومن ضيق مساحاتها أعظم الدلائل على كثرة عدد المشتغلين بحرفة الزراعة(٤٢) ، وتعطى هذه الصورة فكرة اجمالية عن اكتظاظ هذه الأقاليم المنخفضة بالسكان وأن الاستغلال الاقتصادى فيها قد وصل إلى درجة لا تسمح بترك جزء من الأرض دون أن يستغل إلى أقصى حد ممكن .

هذا والاختلاف الذى يلحظ بين المناطق المرتفعة والجهات السهلية المنخفضة قديم العهد ويرجع إلى وقت مبكر ، إذ بينما تدل الآثار التى خلفها الانسان فى الجهات المنخفضة ، وبنوع خاص فى سهل الرين ، على أن الحياة البشرية نشأت فيها وترعرعت منذ عصور ماقبل التاريخ ، نجد ان استعمار المناطق المرتفعة لم يبدأ إلا فى أوائل القرن العاشر الميلادى . وليس من شك فى أن هـذا الوضع يرجع إلى المميزات العديدة التى حبت الطبيعة بها مناطق المنخفضات دون المرتفعات ، فمثلا من الناحية المناخية تكسو الغابات الكثيفة معظم سفوح المرتفعات ، على حين تخلو منها جهات كثيرة من المناطق المنخفضة . ويدل وجود تكوينات اللويس على جانبى الرين والموزل على خلو هذه المناطق من الغابات منذ العصر الجليدى الرابع ، ولذا كان من السهل إرتيادها وسكناها واستغلالها . وعلاوة على ذلك فان هذه الجهات السهلية المنخفضة تتميز فى مناخها بظاهرتى الدفء المعتدل والجفاف النسبى ، على حين تقسو البرودة الشديدة وتغزر الأمطار على المرتفعات . وبطبيعة الحال لابد أن يشجع الدفء والجفاف على الاستيطان والاستثمار ، أما البرودة الشديدة والأمطار الغزيرة فانهما بدورهما يعملان على تنفير السكان وتثبيط عزائمهم . وعلى سبيل المقارنة نذكر ان متوسط الحرارة السنوى فى كولون Cologne التى تقع فى المنطقة المنخفضة يبلغ ١٠ م وأن مجموع أيام الصقيع بها لا يزيد على ٤٠ يوما على حين نجد على ارتفاع ٥٠٠ متر ان متوسط الحرارة السنوى يهبط كثيراً حتى يصل إلى ٢ م ، ويزيد مجموع أيام البرودة الشديدة والصقيع على ١٢٥ يوما منها ٣٠ يوما متتالية . ومن حيث كمية

الأمطار فان المتوسط السنوى لكولون يبلغ ٦٠ سم غير أن هذه الكمية تزداد بالارتفاع حتى تصل إلى ١٢٠ سم ، وفى بعض الجهات تبلغ أكثر من ٢٠٠ سم [٤٣] .

وأهم العوامل التى ساعدت على وجود المناطق المختلفة المنخفضة بين ثنايا هذه الكتلة الجبلية هى التعرية التى عملت على تسوية سطح الكتلة الشستية أولا ، ولما تم لها ذلك بدأت عملية تشكيلها من جديد بوساطة نحت الأجزاء اللينة وتكوين جهات منخفضة فى الأقاليم التى تمكنت من إزالة رواسبها . وقد كانت هذه المنخفضات تبدو كثنيات مقعرة تجاورها الأراضى المرتفعة على كلا الجانبين وكان إمتدادها هو العامل الوحيد الذى يحدد اتجاه المجارى المائية التى تجرى فى المنطقة . أما الجهات ذوات التكوينات الصلبة فلم تقو عوامل التعرية على ازالتها وظل سطحها تبعاً لذلك مرتفعا عاليا ، فى الوقت الذى هبط فيه مستوى المناطق المحيطة بها ، وخير مثال لذلك منطقة تاونس التى تتكون من نوع صلب من الكوارتزيت ساعدته صلابته على بقاء تكويناته مرتفعة [٤٤] . وقد وقفت هذه المنطقة زمنا طويلا حداً فاصلا بين حوض الرين من جهة والبحار الشمالية من جهة أخرى ، ومنها كان نهر الرين عند بدء تطوره ينحدر جنوبا حتى يصب فى البحر الابيض المتوسط عن طريق المنطقة الأخدودية التى تفصل بين الفوج والغابة السوداء ثم طريق بلفور Belfort ووادى الرون . وعند ما تغير مجرى النهر وتحول جريانه إلى الناحية الشمالية وقفت هذه الكتلة نفسها أمامه ، واضطرت مياهه أن تنحرف نحو الغرب متتبعة حافتها الجنوبية حتى وفقت إلى ذلك المخرج الذى يتبعه النهر فى الوقت الحالى مابين بنجن Bingen فى الجنوب وبون فى الشمال ويجتاز به الكتلة الشستية . والواقع ان هذا المخرج من عمل النهر وقد استطاعت مياهه أن تعمق الوادى بمرور الزمن حتى ظهر بشكله الحالى . ويلحظ أن الحافة الجنوبية لهضبة ثاونس شديدة الانحدار وتبدو كحائط مرتفع يشرف على سهل الرين الأوسط من الناحية الشمالية ويتعذر اجتيازه . ويمتد على طول هذه الحافة أقدم طريق فى حوض الرين ، ونعنى ذلك الطريق

الذى يتجه نحو ميناء ڤتراڤى Vetteravie وربطها بعـدد من المدن الأخرى مثل ڤيسـبادن Wiesbaden وكونجشتين Konigstein . وقد كانت جميعها مدنا رومانية قديمة ثم عظمت وكبرت حتى صارت من المدن الزاهرة فى الوقت الحاضر .

وتعتبر كتلة هنزرك منطقة مكملة لـكتلة تاونس التى يفصلها عنها وادى الرين ، وهى مثلها عظيمة الأرتفاع بفضل صلابة صخورها ومقاومتها للتعرية . وهى مثلها أيضاً من حيث فقر التربة وقلة خصوبتها ، بل ربما كانت أشد فقراً وأنكد حظاً . ذلك لأن قممها التى تتكون من صخور الـكوارتز تبدو مجدبة تماما ، ولعل هذا هو سر قلة عدد سكانها ، حتى ان نسبة الـكثافة لاتزيد عن ٤٠ نسمة فى الـكيلومتر المربع ، ويلوح أن هذا العدد فى نقص مستمر .

وتقع كتلة روترجبرج Rottergebirge فى شرق الـكتلة الشستيـة ويبلغ متوسط ارتفاعها ٨٠٠ متر . وهى كباقى الـكتل المجاورة فقيرة قليلة السكان وشبه منعزلة . ويجاورها من الشمال منطقة ساورلاند Sauerland . ويستدل من اسمها على مبلغ البؤس والفاقة اللذين يخيمان على ربوعها .

وأهم المجارى المائية التى قطعت سطح الـكتلة الشستية وجزّأتها إلى هذا العدد من الـكتل نهرا لان Lahn وزيج Sieg ويتصـلان بالرين من جانبه الأيمن ونهرا ناهى Nahé وموزل ، وهما يتصـلان بالرين من جانبه الأيسر . أما نهر لان فقد استطاع أن يكون لنفسه وادياً متسعاً ينحصر بين كتلتى ثاونس فى الجنوب وفسترفالد Westerwald : فى الشمال ، ويجرى فى اتجاه شرق غربى وربط خوض الرين بمنطقة ناساو Nassau الواقعة عند أعالى نهر فيزر Weser . ومن المدن الهامة التى اكتسبت أهميتها بفضل موقعها على طول هذا الطريق الطبيعى ماربرج Marburg : وجيسن Giessen فى المنطقة العليـا من وادى النهر وأوبرلانشتين Oberlahnstein فى المنطقة الدنيا . أما نهر زيج فإنه يجرى إلى الشمال من كتلة فسترفالد فى اتجاه شرق غربى ، مكوناً وادياً متسعاً لا تقل أهميته عن وادى نهر لان ، من حيث أنه سبيل طبيعى للاتصال بين حوض الرين فى الغرب

ومنطقة ناساو فى الشرق . ومن المدن الهامة التى اكتسبت أهمية خاصة بفضل موقعها فى نقطة مقابلة لمخرج وادى لان مدينــة بون . ويعتبر الموزل أهم نهيرات الرين وهو ينبع من كتلة الفوج ثم يجرى فى اتجاه شمالى مخترقا اللورين والسار ثم فى اتجاه شمالى شرقى مخترقا المنطقة الواقعة بين كتلتى هنزرك فى الجنوب وايفل فى الشمال ، حتى يصب فى نهر الرين عند مدينة كوبلنز Coblenz . ويمتاز وادى الموزل بالضيق على الرغم من طوله العظيم ، كما تظهر حوافه مرتفعة عالية . ولا يتسع هــذا الوادى إلا حيث ينحنى مجرى النهر ، وهنا يكتظ السكان ويعظم النشــاط البشرى ، إذ تقوم حرفتا الزراعــة والرعى ، ويكثر إنتاج الحبوب والفاكهة ، وتنشط حركة تربية الماشية .

وليس لوادى الموزل أهمية كبيرة كطريق يربط منطقة السار وحوض باريس بحوض الرين ، ذلك لأن نهير الموزل يكثر من الانحناء والانثناء . وعلى الرغم من وجود خط حديدى يمتد على طول الوادى فإنه لم ينجح فى إخراج المدن الواقعة على جانبى النهر من عزلتها . وعلى سبيل المثال نذكر أن مدينة تريف Trèves على الرغم من كثرة سكانها ، إذ يبلغ عددهم نحو ٦٠ ألف نسمة فإنها مدينة هادئة تعوزها مظاهر النشاط التى تصحب عادة نشاط المواصلات[٤٥] .

أما هضبة أردن فيمكن اعتبارها امتداداً للــكتلة الشستية ناحية الغرب . وهى فى جزء كبير منها ، وبخاصة فى المنطقة الممتدة بين ركروا Rocroi وبراكيشيل Baraquemichel عبارة عن أرض منبسطة قليلة الارتفاع والاستواء ، وتتجلى ظاهرة انحدارها البطىء فى قلة سرعة المجارى المائية التى تجتازها حتى إذا ما بدأت تنحدر نحو الأودية والمنخفضات أسرعت فى جريانها وتدفقت مياهها . وتغطى ثلوج الشتاء كثيراً من جهاتها ، ومتى بدأ دور ذوبانها ، تظهر المستنقعات لأن استواء الأرض لا يسمح بتصريف هذه المياه . ويلحظ أن مستوى سطح هضبة أردن يختلف من منطقة إلى أخرى ، وأهم العوامل التى سببت هذا الاختلاف أثر نشاط التعرية من جهة ومبلغ صلابة الصخور من جهة أخرى . وإذا ما استثنينا

أودية الأنهار وهى المناطق التى حفرتها المياه الجارية ، نجد أن تضاريس هضبة أردن تكونت جميعها كنتيجة لاختلاف مقاومة الطبقات[٤٦] . وإذا أخذنا مثلا الانخفاض الذى يشغله اقليم فامين Famene وجدنا أنه يمتد على طول منطقة شستية صخورها سهلة التآكل ، وهذه تقع بين منطقتين صخورهما صلبة واحدة فى الجنوب وهى أردن ، وتكويناتها من الكوارتز ، وواحدة فى الشمال وهى منطقة كندروز Condroz وتكويناتها عبارة عن أحجار جيرية شديدة الصلابة .

أما المنطقة الأخرى التى تعرف باسم « مابين السامبر والميز » فهى عبارة عن خطوط متوازية من الأودية المنخفضة يفصل بعضها عن البعض الآخر خطوط من التلال المرتفعة وتمتد الأودية فى مناطق جيرية سهلة التآكل على حين نجد التلال تشغل المناطق ذوات الصخور الصلبة العظيمة المقاومة . ويغلب على الاتجاه العام لأنهار هضبة أردن أن يكون من الجنوب حيث الارتفاع يبلغ نحو ٦٠٠ متر إلى الشمال حيث يهبط مستوى الارتفاع إلى أقل من ٢٠٠ متر فى المنطقة المشرفة على اقليم «السامبر — ميز» . ويظهر هذا الاتجاه أيضاً فى حالة نهر لس Lesse وبخاصة فى مجراه الأعلى ، وكذا نهر ميز بين شارلروا ونامور وكلاهما يجرى فى واد عميق يقطع سطح الهضبة . ويسترعى النظر أن نهر الميزيغير اتجاهه فجأة عند نامور ، إذ يتجه صوب الشرق فى نفس الاتجاه الذى يجرى فيه نهر سامبر ، ويرجع سبب ذلك إلى أن النهر عند انحداره نحو الشمال يصادف فى طريقه منخفضاً قديماً يمتد بين شارلروا ولييج ، ويترتب على ذلك أن يغير النهر اتجاه مجراه[٤٧] .

ب — **أما الأراضى السهلة** فتشمل جزءاً كبيراً من سهل أوربا الأعظم يمتد بين الكتلة الشستية وبحر الشمال ، ويجرى فيه نهر الرين وفروعه العديدة التى يتفرع إليها قبل أن يصب فى بحر الشمال . وهذه الأراضى المنخفضة عبارة عن سهل رسوبى كان للطمى الكثير الذى تجلبه مياه الرين فى كل عام فضل كبير فى تكوينها . ومما تجدر ملاحظته أن اتصال الرين بهذه المنطقة لم يتم إلا فى عصر البليوسين بعدما أثرت حركات القشرة الأرضية فى تحويل مجرى الرين وتوجيهه

نحو الشمال ، وبعد أن تم ذلك التحول استطاعت مياه الرين أن تشق لها وادياً فى الكتلة الشستية ما بين بنجن وبون[٤٨] . ولا يمكن اعتبار هذا الجزء من وادى الرين ضمن المنطقة التى تكون الأراضى السهلية لأنها تختلف عنها فى تكوينها وفى مظاهرها الطبيعية ، وهى فى الواقع عبارة عن واد من الأودية العديدة التى نحتتها الأنهار فى الكتلة الشستية كوادى نهر لان ووادى نهر موزل . وهناك وجه شبه عظيم بين المنطقة السهلية التى يجرى فيها الرين بين مدينتى بون ودوسلدورف وبين الوادى الذى يجرى فيه الرين من بنجن إلى بون . ذلك لأن المنطقة الأولى ، كانت هى الأخرى جزءاً من الكتلة الشستية تمكنت عوامل التعرية من إزالة تكويناتها قبل أن تبسط عليها مياه الرين رواسبها من جديد . والأمر الذى يختلفان فيه هو أن وادى الرين بين بنجن وبون من عمل الرين نفسه ، أما المنطقة ما بين بون ودوسلدورف فقد حفرها نهر آخر كان يجرى فيها وقت إن كان الرين الأوسط يجرى جنوبا نحو البحر الأبيض . ولما حدثت تلك الحركة التى حولت اتجاه نهر الرين نحو بحر الشمال تحول اتجاه النهر الآخر وترك هذا الجزء من مجراه ليشغله نهر الرين . وعلى ذلك يرى بعض الجغرافيين أن نهر الرين لا يدخل سهله الرسوبى الحقيق أو بعبارة أخرى حوضه الأدنى إلا بعد أن يترك منطقة دوسلدورف وهناك من يقول أنه لا يدخله إلا بعد أن يجتاز الحدود الهولندية عند أمرخ ويتحد مع نهر ميز . ويمتاز مجرى نهر الرين فى المنطقة الممتدة بين بون ودوسلدورف بكثرة التعرج والانحناء وهو من هذه الناحية عظيم الشبه بمجرى نهر موزل . وتحف بالمجرى على كلا جانبيه منطقة منخفضة تغمرها مياه الفيضان ، وعلى حافتى هذه المنطقة تمتد سلستان من التلال الرملية لا يزيد ارتفاعهما عن ١٠٠ متر فى الوسط . هذه التلال هى فى الحقيقة مدرجات النهر ، كونها فى فترات متعاقبة من الارساب والتعرية ، وإلى جانبى هذه المدوجات تمتد مساحات واسعة من الأراضى السهلة مكونة من رمل وحصى ، وهذه تنحدر نحو الشمال انحداراً تدريجياً ، وبينما يبلغ ارتفاعها نحو ١٨٠ مترا فوق مستوى البحر عند بون ، تهبط فى منطقة كرفلد Krefeld ودوسلدورف إلى ٨٠ متراً فقط .

وعندما يدخل الرين منطقة الدلتا يتفرع إلى فروع كثيرة جداً بعضها طبيعي تكون نتيجة لتغير مجرى النهر من حين إلى آخر وبعضها صناعي حفره الإنسان تسهيلا لحركة الملاحه من جهة أو تيسيراً لعمليات الصرف من جهة أخرى(٤٩) .

وقد استطاعت مياه أنهار الرين والميزان تلقي رواسبها وتكون هذا السهل العظيم . ومن الأمور الجديرة بالذكر أن الرواسب التي تتكون منها الدلتا ليست جميعها مما جلبته مياه الرين وفروعه ، بل إن جزءاً كبيراً منها من نتائج الجليد الذي غطى مناطق واسعة من أوربا في العصر الجليدي . ويضاف إلى ذلك تلك الرواسب البحرية ، ومعظمها من التكوينات الرملية والطينية ، التي تكونت تحت مياه البحر حين كانت منطقة الدلتا تغمرها المياه .

وقد بدأ تكوين الدلتا في أواخر الزمن الجيولوجي الثالث ولكنها لم تظهر بصورة واضحة إلا في العصر الحديث بعد أن دفعت ثلوج اسكندناوة أمامها كميات هائلة من الرواسب وجلبتها إلى هذه المنطقة في العصر الجليدي . ولهذا السبب تختلط الرمال والحصى التي جلبتها أنهار الرين والميز من أجزاء الحوض المختلفة بالرمال والحصى التي جلبتها الثلوج من شبه جزيرة اسكندناوة . ويبدو هذا الخليط من التكوينات المختلفة أرضاً مستوية غير أنها في الحقيقة تنحدر من الجنوب إلى الشمال ، وفي الجنوب يتراوح الارتفاع بين ٥٠ مترا و ١٠٠ متر فوق مستوى البحر ، أما في الشمال فانه يهبط تحت مستوى البحر ولذا كثيراً ماتطغى عليها مياه البحر والنهر على السواء(٥٠) . وقد كانت هذه التكوينات في أول أمرها ذات سطح مرتفع وكانت الأنهار تجري فوقها ببطء ، وهذا هو السبب في أن الأنهار كانت تغير مجاريها كثيراً ، غير أنه حدث بعد ذلك أن نشطت حركة الأنهار ، وزادت مقدرتها على النحت ، وترتب على ذلك أنها استطاعت أن تحفر لها أودية متسعة في هذه الرواسب . ويلحظ ان هذه الأودية تبدو منخفضة الآن إذا ماقورنت بمستوى سطح الدلتا القديم . ويمكن تمييزها عنها إما بمستواها المنخفض أو برواسبها الناعمة التي جلبتها مياه الأنهار في الوقت الحاضر ؛ ذلك لأن الرواسب التي تكونت منها الدلتا أولا والتي

مازالت تظهر فى المناطق التى تفصل أودية الأنهار بعضها عن بعض ، هى عادة مواد غليظة كالرمال والحصى .

ويجدر بنا أن نذكر أن دلتا الرين بشكلها الحالى قد دخل عليها كثير من التغيير والتبديل وهذا هو سر اختلافها عن طبيعتها الأصلية . ويرجع السبب فى ذلك إلى عاملين رئيسيين ؛ العامل الأول وهو كثرة تغير مجرى النهر ، والسبب فى ذلك يرجع إلى انخفاض جوانب النهر من جهة وتراكم الرواسب الكثيرة فى مجرى المياه مما يعوق سيرها ويجعلها تطغى على الجوانب . أما العامل الثانى فهو كثرة طغيان مياه البحر على الأراضى الساحلية بسبب انخفاضها عن مستوى البحر . وتدل الوثائق التاريخية على أن بحر زويدر لم يكن له وجود أيام الرومان ومعنى هذا أن البحر قد غمر هذا القسم من اليابس ، وأن هذا الطغيان جاء فى فترات متعاقبة اشتد الضغط فيها على الجسور الصناعية القائمة ، وهكذا نشأ هذا البحر فى صورته الحالية .

هذان العاملان قد جعلا أساس الحياة فى هولند المنخفضة الكفاح المستمر بين الإنسان والطبيعة . وقد كان من نتائج هذا الكفاح إقامة الجسور التى تحمى الأراضى من طغيان البحر من جهة ، وفيضان المجارى المائية من جهة أخرى . كذلك ترتب على هذا الكفاح استنباط ذلك النظام الدقيق الذى وضعته هولند موضع التنفيذ ، ونعنى نظام صرف المياه ، ورفعها عن بعض المناطق تمهيداً لاعدادها للزراعة أو الرعى [٥١] .

أثر الرين فى حوضه

ا — *وحدة حوض النهر* : هذا هو وصف مجمل لأهم المظاهر الطبيعية التى يتميز بها حوض الرين وأهم نواحى النشاط البشرى التى ساعدت البيئة على خلقها . ومن مجموع كل ذلك يمكن القول إن حوض الرين ، وإن تعددت المظاهر فى جهاته المختلفة مابين مرتفعة ومنخفضة ، فان أجزاءه مرتبطة ، وعلى ذلك يجب إعتباره وحدة جغرافية ذات صفات تميزها عن كل ماجاورها [٥٢] .

وقد نجم عن ظاهرة عدم التجانس بين أجزاء الحوض أن ظهرت الأجزاء المختلفة تحمل طابع الاختلافات العظيمة فى البيئة والتضاريس ، ونتج عن ذلك وجود تباين ظاهر فى نوع النشاط البشرى بين الجهات المختلفة . وفى الحقيقة يمكن اعتبار الحوض متحفاً تجمعت فيه جميع عناصر التكوينات الجيولوجية والأنواع التضاريسية ، وإذا كانت المرتفعات الشاهقة لاتظهر كثيراً ، فان الجبال المختلفة والهضاب المتقطعة ذوات السطوح المنبسطة أو المتموجة والسفوح المنحدرة أو المتدرجة تكاد تتمثل فى معظم أجزاء حوض الرين . يضاف إلى هذا كله أخدود الرين العظيم الذى يكوّن فى حد ذاته طريقاً طبيعيا محدوداً للوصل بين الشمال والجنوب ، كما أن نهيراته تربطه بالأقاليم المجاورة . ومن سفوح المرتفعات القريبة تسيل الجداول والروافد العديدة نحو أجزاء الحوض متجهة شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، بعضها يجرى بشدة تعترضه الشلالات والجنادل ، وبعضها الآخر يجرى ببطء ، ويكثر من الانحناء والالتواء ليتفادى المرتفعات أو ليتتبع فى سيره اتجاه المنحدرات المختلفة المعقدة .

كذلك تختلف أنواع الحياة النباتية إذ توجد الغابات المعتدلة المطيرة كتلك التى توجد فى أقليم سبتزارت Spezzart كما توجد المراعى الجيدة أو الفقيرة وحدائق الكرم التى تغطى سفوح التلال والهضاب القليلة الإرتفاع ، على حين تشغل الحدائق وأشجار الفاكهة مساحات واسعة متفرقة ، وتتمثل زراعة الحبوب الغذائية المعتدلة والبنجر والبطاطس والطباق وغيرها فى مختلف جهات الحوض . ولهذا كله أثره فى توزيع السكان ، فبينما ترى القرية الصغيرة ، على سفح ربوة عالية أو بجانب جدول صغير يجرى مياهه بشدة وسط أقليم الغابات ، تظهر مدن الأسواق ، والمدن الكبرى على حافات الهضاب ، وعند مخارج الأودية ، ونقط تقابل النهر بنهيراته ، أو وسط مناطق الانتاج الزراعى أوالرعوى . وبعض هذه ترجع شهرته إلى القرون الوسطى ، كما توجد أيضاً مدن الصناعة العظمى الحديثة التى تشبه خلايا النحل فى إكتظاظها بالسكان وبالصناعات ، ويمثلها خير تمثيل مدن حوض الروهر وحوض زيج حيث

تعظم موارد الثروة المعدنية وتقوم الصناعات العظمى .

أما فى الأقاليم السهلية المنخفضة فان أعظم ما يميز الأجزاء بعضها عن البعض الآخر هو نوع التربة السائدة ، ونظام صرف المياه ، وكمية المياه التى يجىء بها النهر . وكثيراً مايترتب على غزارة المياه وسوء تصريفها ظهور مساحات واسعة على شكل مستنقعات ، كما أنه قد يترتب على عدم مسامية التربة وقلة قابليتها لتصريف مايصل اليها من المياه أن تضعف الخصوبة وتتأثر حرفتا الرعى والزراعة . وهناك بعض الجهات السهلية التى ازدحمت فيها المجارى المائيـة والقنوات والمصارف ومثل هذه تقل فرصة استغلالها ، وتكاد تكون خالية من نواحى النشاط الزراعى أو الرعوى ويقل سكانها تبعاً لذلك .

أما الآجزاء العليا من بطن الوادى الرئيسى ، التى تتكون عادة من رواسب غرينية ، فهى أخصب جهات الوادى وبخاصة حيث توجد تربة اللويس العظيمة الخصب . وقد ترتب على أثر عوامل التعرية المختلفة أن بطن الوادى قد أصبح منقسما إلى عدد من النطاقات المرتفعة والمنخفضة . أما المرتفعة فتتكون من الحصا والحصباء والرمال ، على حين أن المنخفضة تضم مجرى النهر وكثيراً ماتفيض مياهه عليها وتترك بعض أجزائها مغمورة بالمياه . ولمـا كان النهر كثير الانحناء والالتواء فإنه قد تمـكن من إيجاد شبكة من المجارى المائية المستعملة أو المهجورة .

وفى الحق لم يتمكن الرين من تنظيم إرساب الـكميات العظيمة من المواد التى يحملها من منابعه العليا ، كذلك لم ينجح النهر فى توزيع المواد المتخلفة عن أثر الجليد بنوع من العدل والقسطاس . ونتيجة كل ذلك أن النهر لم يتمكن من السيطرة على مجراه بل هو دائم التغيير والتبديل . ولما زادت العناية بالمحافظة على المجرى فى العصور الحديثة ، كانت النتيجة أن هذه المجارى القديمة العديدة ، والانحناءات الـكثيرة التى هجرها النهر فى الماضى ، وكلها ترجع إلى فترات مختلفة متباينة فى تاريخ تطور مجرى النهر ، مازالت تمثل فى السهل الفيضى مستنقعات أو خزانات إضافية ، تفيض عليها مياه النهر متى زادت وتعطيها حياة نباتية مائية . ويغطى الجزائر الرملية التى

تعترض المجرى هنا وهناك نوع من الغابات التى يمكنها أن تتحمل تعرضها لمياه الفيضان . وقد قلت صلاحية هذه الأراضى المتاخمة لمجرى النهر لأغراض الزراعة أو الرعى ، إذ التربات عادة تتكون من الرمل أو الحصا والحصباء وكلها من التربات القليلة الخصوبة حتى ولو كانت عالية بحيث لا تتأثر بمياه فيضان النهر . ولهذا كانت جوانب النهر عبارة عن أشرطة من الأرض قليلة السكان وقليلة القيمة الاقتصادية . غير أنه فى محاذاة السهل الفيضى ويرتفع عنه قليلا يوجد نطاق من الكثبان الرملية . وعند نقط التقاء منحنيات النهر القديمة بحافة هذا النطاق الرملى تظهر القرى ومناطق الاستقرار ، وبعضها قد بعد عنه النهر ، ولكنها جميعاً يتصل بعضها بالبعض الآخر بوساطة هذا الشريط من الكثبان الرملية الذى يربط بينها ، ويعلو فوق مستوى المستنقعات الموجودة على الجانبين . وإلى الغرب من هذا الشريط المرتفع نسبياً يوجد سهل نهر إل Ill الفيضى الذى يقطعه فى أكثر من موضع عدد المجارى والجداول المهجورة التى يمكن اعتبارها جزءاً من وادى الرين الأخدودى . ويتخلل هذه المنطقة هنا وهناك عدد من النقط المرتفعة التى تعلو فوق مستوى السطح العام المنخفض المنبسط لهذا الوادى الانكسارى . وحتى هذه النقط لا تصلح للزراعة لأنها تتكون فى العادة من مواد رسوبية قليلة الخصوبة . وقد جففت مستنقعات نهر إل وأصبح معظمها يشتغل بالإنتاج الزراعى على عكس حالة مستنقعات الرين نفسه . وكلما تقدمنا نحو الغرب ، بدأت الزراعة وظروفها المساعدة تظهر بالتدريج ، وبخاصة عند مقدمة هضبتى القوج ، والغابة السوداء ، حيث توجد تربة اللويس التى تغطى طبقات الغرين وغيره من المواد الرسوبية القديمة . والمطر هنا يكفى حاجة الزراعة ، ومن ثم لا تدعو الضرورة إلى استخدام وسائل الرى . وتنتشر ظاهرة زراعة المدرجات على سفوح الهضاب ، وكذلك على جوانب أودية النهيرات العديدة ، ويكثر هنا وجود القرى ويعظم عدد السكان المشتغلين بالزراعة . وإلى خلف ستراسبورج تظهر اللويس الخصيبة بحيث تغطى سطح جميع المنطقة السهلية المجاورة التى تشتهر بانتاجها الزراعى الجيد . وبعد أن ينتهى دور المدرجات الزراعية

يبدأ ظهور الغابات ، ويعقب ذلك ظهور المراعى حسب درجة الارتفاع على السفوح والمنحدرات .

هذه صورة لأثر بعض تضاريس الحوض وطبيعة تركيبها فى الحياة البشرية ؛ على أن بعض الأودية بطبيعة الحال يختلف عن البعض الآخر من حيث توزيع السكان ونوع الحرفة السائدة . وإذا تركنا حرفة الزراعة جانباً نجد أن هناك بعض العوامل الطبيعية الأخرى ، مثل توزيع الثروة المعدنية والموقع الجغرافى وكلاهما يؤثر فى تحديد نوع الاستثمار الإقتصادى . أما النهر ذاته فإنه على الرغم من قيمته العظيمة لأراضى واديه ، إلا إنه بعيد عن الحياة الزراعية لسكان هذا الوادى . ويلوح أن سهل الرين الأعلى ليس أوفر حظاً من هذه الجهات ، إذ فى القسم الجنوبى منه تجد الشريط المزروع عبارة عن مساحة صغيرة لا يزيد عرضها عن ميل واحد فى معظم الأحيان . وقد حدد اتساع هذا الشريط وقوعه بين غابة هارت Hart Forest من جهة والنهر الفيضى من جهة أخرى ، وهنا تظهر القرى المتعدده التى ترتبط بعضها بالبعض الآخر بوساطة الطرق التى تتبع هذا الشريط المرتفع نسبياً ، ومن خير الأمثلة موقع مدينة هوننج Huningue التى عندها تبدأ قناة تعرف باسمها آخذة مياهها من الرين ، وكذلك سنت لويس وڤليج نيف Village Neuf ، وكلها تدخل ضمن هذا النوع من القرى والمدن ، كما يوجد عدد من النقط الحربية والقلاع الحصينة . وفى جنوب وجنوب شرق غابة هارت يوجد خطان من القرى والمدن على بعد بضعة أميال من المرتفعات ، وكل خط منها تحمل قراه إسماً مشتركا ويتميز بإضافة Le Haut, Le Bas و(Nieder, Ober) ومثال ذلك Ober and Nieder Michel bach وجميع هذه القرى من النوع الزراعى ، أما أرض الغابات فيما بين الرين ونهر إل Ill فلا تضم سوى عدد قليل من القرى الصغيرة .

إذا كان هذا التباين يبـدو واضحاً بين أجزاء الجهات السهلة المنخفضة فى الحوض فإن حالة المرتفعات لا تختلف عن ذلك كثيراً . وإذا ما استثنينا الجزء الجنوبى الأقصى الذى يشغل جزءاً من النطاق الألبى العظيم ، وكذا الجزء الشمالى

الأقصى الذى يشمل منطقة الدلتا نجد حوض الرين يتكون فى مجموعه من منطقة هرسينية قديمة تأثرت إلى حد كبير جداً بعوامل التعرية وحركات القشرة الأرضية . ويضاف إلى ذلك أن المناطق المرتفعة التى تكوّن الجزء الجنوبى من الحوض أو المرتفعات التى تكون الجزء الشمالى منه ، تمتاز بتعرضها للبرودة الشديدة والأمطار الغزيرة ، كما تمتاز بوجود غابات فسيحة ومزارع واسعة تغطيها فى معظم أجزائها . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى قلة السكان فيها ، وكذلك إلى قلة النشاط البشرى فى ربوعها . غير أن الهضاب المختلفة تختلف فيما بينها بمقدار اختلاف أنصبتها من موارد الثروة الطبيعية التى تتمثل فى الحوض وكذلك على أساس درجة استفادتها من موقعها بالنسبة للنهر من جهة ، وبالنسبة لحوضه من جهة أخرى . على أنها تشترك جميعها فى ميزة خاصة ، وهى أنها تمثل مناطق عزلة يعيش سكانها كأنهم فى أقطار متباعدة منفصلة ، ويندر أن تتحد كلمتهم أو تتوثق الروابط بينهم ، وقد ظلوا مدى قرون عديدة منقسمين إلى عدد من الوحدات السياسية والحربية والاقتصادية ، تغلب عليهم النزعة الانفرادية ، والروح الذاتية التى تعمل لمصلحتها الخاصة .

ب — **الرين كطريق مائى** : ومع هذا كله فليس يوجد فى أوربا جميعها نهر له من الفضل على الأجزاء المختلفة التى يتكون منها حوضه ، وعلى سكان هذه الأجزاء ما لنهر الرين من الفضل(٥٣) ، وبوساطته استطاعت مناطق بعيدة عن البحر أن تتصل بالعالم الخارجى ، وترتبط به ارتباطاً مباشراً . ويمكن اعتبار منطقة الرهر مثلا ظاهراً يدل على أن التقدم العظيم الذى بلغته يرجع معظمه إلى أهمية الرين كطريق طبيعى للمواصلات الداخلية والخارجية . ذلك لأن هذا الطريق الرخيص هو الذى ساعد على استيراد المواد الأولية الكثيرة التى تلزم للصناعات العديدة القائمة فى حوض الرهر ، كما أنه ساعد على تسهيل عملية تصدير ما ينتجه الحوض جميعه من منتجات صناعية أو معدنية أو وقود . ولولا وجوده وصلاحيته للملاحة لما كان لاقليم الرهر هذا النشاط الهائل الذى يقوم فى جهاته المختلفة(٥٤) . وهناك

مناطق أخرى شبيهة بالرهر لدرجة عظيمة ، وتدين هى الأخرى بمقدار كبير من تقدمها ونهضتها إلى وقوعها على الرين ، ومنها « بادن » و« هس » و«الزاس» . ولكل من هذه المناطق موانى نهرية هامة تعتبر المنافذ البحرية للغلات التى تنتجها . وإذا كانت سويسره تبعد كثيراً عن البحر فإنها بفضل الرين قد اتصلت بالعالم الخارجى وتعتبر بال منفذها إلى الخارج . وليست مهمة الرين قاصرة على ربط المناطق التى تقع فى حوضه بالعالم الخارجى ، بل تتعدى ذلك إلى ربط هذه المناطق بعضها ببعض وجعلها كلها أشبه بوحدة اقتصادية يمون كل جزء منها غيره بما يزيد عن حاجته ويتزود منها بما ينقصه من الموارد ، ونذكر على سبيل المثال مسألة الفحم والحديد بين ألمانيا وفرنسا وبين بلجيكا ولكسمبورج .

أما من الناحية الملاحية فإن الرين أعظم طريق مائى فى أوربا ، ويمتاز مجراه بكونه أقل تعرضاً للإرساب الشديد كما هى حال كثير من أنهار أوربا ، ولهذا كان من السهل المحافظة عليه وابقاؤه صالحاً للملاحة . وقد زاد فى أهميته الملاحية وقوعه فى منطقة زراعية صناعية رعوية وفيرة الخيرات والغلات والمعادن ومكتظة بالسكان لدرجة عظيمة . وبفضل القنوات العديدة التى تربطه بالأقاليم المجاورة أصبح نهر الرين ونهيراته وقنواته ، يمثل شبكة مائية خطيرة الأهمية بالنسبة لسويسره ، وألمانيا وفرنسا وهولنده وبلجيكا ولكسمبوج ، وتهتم له بريطانيا لأنه يصب فى بحر الشمال الذى تطل عليه . ويندر أن تتعطل ملاحته فى أى وقت من السنة لأن النهر قليل التجمد ومياهه غزيرة فهو يتغذى فى الصيف بالأمطار الغزيرة التى تسقط على مرتفعات الألپ فى هذا الفصل على حين يتغذى فى الربيع بالمياه التى تنجم عن ذوبان الثلوج التى تراكمت على حوضه الأعلى طول فصل الشتاء . وقد ترتب على مجراه أنه يسمح لعدد كبير من السفن بالحركة نزولا فى النهر أو صعوداً فيه كما ساعد غاطسه الكبير السفن العظيمة على السير فيه متوغلة إلى مسافة كبيرة فى الداخل .

والملاحة قديمة العهد فى هذا النهر ترجع إلى زمن مبكر ، ولم يعقها أن النهر

كثير الرواسب فى مجراه الأدنى وبخاصة فى الأجزاء التى تقع ضمن هولندا أو أنه سريع الجريان فى المنطقة الممتدة بين بال وستراسبورج . ذلك لأن حاجة السكان الملحة إلى استخدام النهر للأغراض الملاحية جعلتهم يفكرون فى تذليل كل عقبة كانت تحول دون استخدامه . وقد ظهرت هذه الحاجة بصورة ملحة فى العصور الوسطى حيث كان الاعتماد الكلى فى المواصلات على وسائل النقل البرى أو النهرى . ولما كانت المناطق الممتدة على جانبى النهر لا تصلح لإنشاء طرق ممهدة نظراً إلى كثرة المستنقعات والتكوينات الرملية فيها ، ومن ثم اتجهت عناية سكان الحوض إلى استخدام النهر وتذليل ما به من عقبات وصعوبات(٥٥) .

وقد تطورت الأهمية السياسية لحوض الرين فى العصور الحديثة بسبب ظهور عدد من القوى السياسية ، يمثل كل منها قومية خاصة كثيراً ما تتعارض وجهة نظرها مع جاراتها . ومن الطبيعى أن تتأثر ملاحة النهر على الرغم من الحاجة الماسة إلى استعماله فى أغراض النقل . ذلك لأن طرق الاتصال ووسائل النقل البرى كانت مجهدة ومضطربة بسبب وعورتها وقلة استتباب الأمن والنظام الموحد فى ربوعها ، وعلى الرغم من أن ملاحة النهر كانت قاسية شاقة بسبب خطورة الملاحة ، وكثرة المجارى الضحلة وتعدد الفروع المهجورة أو المستعملة . وقد نجم عن ذلك كله قصر الملاحة على استعمال القوارب الصغيرة فى كثير من أجزاء المجرى . ومع ذلك لم تقل أهمية النهر الملاحية بالنسبة للدويلات والقوميات المشرفة عليه . وحتى سنة ١٧٦٤ لم يعمل شىء يذكر للاشراف الحقيقى على النهر ، ولتذليل الصعاب التى تعترض ملاحته ، اللهم إلا إقامة بعض جسور صناعية حيث توجد النقط الضعيفة الخطرة فى المجرى . ثم جاءت بروسيا تحت زعامة فردريك الأكبر وبدأت سلسلة من عمليات إصلاح الأراضى ، وإقامة الجسور الصناعية ، وإدخال تعديلات على المجرى بقصد تفادى المنحنيات العديدة فى القسم الخاضع لنفوذها السياسى . غير أن ملاحة النهر بصفة عامة لم تنتفع كثيراً بهذه العمليات الفردية ، ولم تتقدم كثيراً ، ولو أن عمليات تقويم مجرى النهر بفضل المجهودات المتكررة من

جانب الدول التى تنتفع به مباشرة قد ترتب عليها تقصير مجراه بنحو ٥٠ ميلا ، وجعلت انحداره أكثر شدة وحدة وأصبح تياره أكثر سرعة ، ومقدرته فى عمليات النحت والحفر أعظم وأقوى . وقد تأثرت ملاحة الجزء الأعلى من النهر لأنها أصبحت أصعب كثيراً ، بدليل أن التجارة النهرية عند بال تتراوح بين ½ و ١½ مليون طن على حين تبلغ عند مانهيم أكثر من ١٢ مليون طن . والواقع أن ملاحة القسم الأعلى من النهر بعد ستراسبورج لا تتيسر إلا حيث يكون مستوى مياه النهر عاليا ، وبخاصة بعد أن أصبح الرين الأخدودى يجرى بين جسور صناعية قوية . وأعظم الفترات صلاحية للملاحة فى هذا القسم فترة الصيف ، أما بين اكتوبر وابريل فتتعذر الملاحة نسبياً لانخفاض مستوى مياه النهر بسبب تجمد المنابع الألبية ، وبسبب ماقد يتجمع فى مجرى النهر من الثلوج ، وقد يحدث أن تؤدى برودة الشتاء إلى تجمد المياه واستحالة الملاحة بتاتاً . كذلك قد ينشأ عن ذوبان الثلوج أن ترتفع مياه النهر وقد يؤدى ذلك الارتفاع إلى فيضانها على الجانبين ، أما أمطار الخريف والشتاء فهذه لايظهر أثرها بوضوح إلا فى شمال ستراسبورج بسبب أن نهر ال ILL يجمع معظم مياه هضبة الفوج ولا يوصلها إلى مجرى الرين إلا فى شمال هذه المدينة . وحتى فى شمال ستراسبورج تظهر صعوبة ملاحة النهر ، لان عملية تكوين شطوط من الرمال والحصى والحصباء تستمر ، ولما كانت هذه التكوينات قابلة للانتقال والتغيير فى أشكالها ، واتجاهاتها ، وبخاصة فى فصول غزارة المياه ، فان المحافظة على صلاحية الملاحة فى مجرى النهر تتطلب مجهودات مستمرة ونفقات عظيمة . وخير مثال لذلك أن فيضان الرين عقب أمطار أواخر سبتمبر سنة ١٩٢٥ قد ترتب عليه ان النهر غير مجراه بين مدخلى ثغرى ستراسبورج وكهل .

وقد تقدمت ملاحة الأجزاء الأخرى من مجرى النهر . وعلى الرغم من كثرة الرواسب ، والمنحنيات العديدة ، والمجارى الكثيرة فى المجرى الأدنى ، فإن ملاحة النهر قد تضاعفت أهميتها كما تدل على ذلك إحصاءات تجارة النقل فى الموانى المصبية العديدة . أما الأجزاء الأخرى من مجرى النهر فقد كانت ولا تزال بطبيعتها أكثر

صلاحية من هاتين المنطقتين ، وهـذا يفسر قيام عدد عظيم من الثغور النهرية الـكبيرة . وقد أدى نجاح سكان الحوض فى إزالة الرواسب من مجرى النهر ، وفى تقصير مجراه فى بعض المواضع ، بجعله أقرب إلى الاستقامة كلما أمكن ذلك ، إلى ازدياد أهمية الرين كطريق للمواصلات حتى أصبح على ما هو عليه الآن أعظم نهر فى أوربا ، ولا يقاس به فى نشاطه التجارى وحركة الملاحة سوى منطقة البحيرات العظمى فى أمريكا الشمالية[٥٦] . ويوجد فى الأقليم الألمانى من نهر الرين أكثر من ٢٩ ثغراً نهرياً على تمام الاستعداد لما تقتضيه ظروف الشحن والتفريغ ، كما يوجد فى هولند ثمانية مثلها . هذا عدا الثغور النهرية الواقعة على نهيراته الصالحة للملاحة مثل ماين ونـكر وموزل ؛ وهناك عدد من الثغور النهرية مثل بال وستراسبورج ومانهيم ، وماينز ، وكوبلنز وفرنـكفورت ، وكولون ودوسلدرف ، وديسبرج ورهروت وروتردام ، لا تقل فى أهميتها الملاحية التجارية عن كثير من الثغور البحرية العظيمة .

ح — **وادى الرين كطريق برى** : إلى جانب الأهمية العظيمة التى يمتاز بها الرين كطريق هام للملاحة الداخلية أو الخارجية يختص واديه بأهميته الـكبيرة كطريق برى للمواصلات بين حوض البحر الأبيض المتوسط فى الجنوب وسواحل بحر الشمال فى الشمال ، وذلك عن طريق وادى النهر نفسه ؛ كذلك بين جهات غرب أوربا فى الغرب وحوض الدانوب ووسط أوربا فى الشرق بفضـل الروافد وأوديتها العديدة التى تقطع حوض النهر فى اتجاه شرق غربى . والواقع أن حوض الرين كان أحد طرق الاتصال والانتقال الرئيسية فى أوربا زمناً طويلا ، وكانت له أهمية عظيمة لا تقل عن أهمية الطرق الـكبرى الأخرى[٥٧] ، وأهم هـذه الطرق ما يأتى : —

١ — طريق اللويس الجنوبى الذى يمتد من جنوب روسـيا إلى حوض الدانوب ابتداء من رومانيا حتى تنتهى ملاحة الدانوب عند الم Ulm . ومن ثم يتبع شعبا عديدة إلى أعالى الرين وإلى حوض نهرى نـكر وماين ، ثم بعد ذلك

يؤدى إلى وادى الرين الأخدودى وينتهى إلى حوض الرون فى الغرب .

٢ — طريق اللويس الشمالى الذى يبدأ فى اكرانيا ويخترق غاليسيا وسيليزيا العليا وموارفيا وبوهيميا ثم يجتاز اقليم سكسونى ، وبعد ذلك يلف حول هضاب ألمانيا الجنوبية والوسطى قاصداً حوض الرهر بصفة خاصة وحوض الرين بصفة عامة ، ثم يتجه هذا الطريق نحو الغرب ويقطع هضاب هرفى Herve . وهسبابى Hesbayé وهينو Henaut وبيكاردى Picardy . وأخيراً بوس Bauce التى تقع جنوبى باريس .

٣ — الطريق الساحلى لبحر بلطيق وامتداده على طول ساحل بحر الشمال ، ويشترك فيه بطبيعة الحال الجزء الأدنى من حوض الرين .

وقد كان للرين من هـذه الطرق الطبيعية الرئيسية مكانة ممتازة . ذلك لأن طرق الانتقال والهجرة التى كانت تتبع فى العادة النطاقات الخالية من الغابات ، وبخاصة تلك النطاقات ذوات التربة الخفيفة التى لا تصلح لنمو الغابات ، كانت تتجمع فى نقطة ما داخل حوض الرين ، وعلى ذلك أصبح حوض الرين منذ أقدم العصور منطقة عظيمة الأهمية تلتقى فيها طرق الهجرات المختلفة . ولما كانت هـذه الطرق التى تبعتها الهجرات القديمة أسهل استثماراً من المناطق الأخرى التى تغطيها الغابات ، فإن استغلالها بدأ منذ زمن مبكر ، وترتب على ذلك أنها اجتذبت عدداً كبيراً من السكان يفوق كثيراً عدد الذين استوطنوا الأقاليم المجاورة ، سواء فى ذلك الجهات الجبلية المرتفعة ، أو الجهات السهلة التى كانت تغطيها المستنقعات أو الغابات الكثيفة . وقد نجم عن هـذا الاستثمار المبكر أنها نهضت وتقدمت وأصبحت تجتذب أهم الطرق الرئيسية عبر القارة الأوربية .

وقد ظل الرين طوال العصور التاريخية طريقاً هاماً فى أوربا الوسطى وبخاصة بين الشمال والجنوب . كذلك كان النهر نفسه ، طريقاً ملاحياً عظيما ، وحداً سياسياً يفصل الجماعات البشرية بعضها عن بعض . أما المناطق المرتفعة المجاورة للوادى والتى تكوّن بعض أجزاء الحوض فإنها ، بسبب ارتفاعها ، كانت صعبة

الاجتياز ولذلك كانت مناطق عزلة . فمثلا لجأ الفرنجة فى أواخر العصر الرومانى إلى الأقاليم المرتفعة التى تقع فى غربى النهر واستقروا فيها ، على حين لجأت جماعات جرمانية مختلفة إلى المرتفعات الشرقية وظلت فى عزلتها بعيدة عن أثر الحضارة الرومانية مدة طويلة . وقد ساعد هذا الوضع على أن يصبح الرين حداً فاصلا بين هذين العنصرين المتقابلين ، وكانت هناك نقط حربية رومانية مثل ستراسبورج وماينز وكوبلنز وكولون وظيفتها الأصلية الاشراف على هذا النظام ، ولو أن هذه النقط الحربية أخذت بالتدريج تكتسب أهمية تجارية أيضاً ، إذ أنها أصبحت محطات تمر بها التجارة بين الشمال والجنوب . ولما كان عهد الاقطاع ظهرت نقط أخرى على النهر ، قام بإنشائها الولاة والحكام لجباية الضرائب على التجارة المنقولة وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى عرقلة الملاحة فى النهر بعض الشىء ، كما أدى إلى المنافسة بين كل ولاية وأخرى مما ساعد على وجود حالة شبه دائمة من الانقسام الداخلى بينها .

وقد بقيت الولايات والمقاطعات على هذه الحال من الانقسام حتى جاء الفرنسيون واحتلوا حوض الرين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفى نفس الوقت تهيأ الوقت لخلق حالة جديدة لنمو التجارة على نطاق واسع ؛ غير أنه حدث بعد ذلك أن تكونت الوحدة الألمانية وتقدمت بحدودها إلى ضفتى الرين الذى أصبح منذ ذلك حداً سياسياً مضطرباً يتناوب الاشراف عليه كل من فرنسا وألمانيا[٥٨] .

د — **أثر النهر فى نشأة المدن** : وللرين هو وفروعه وروافده المختلفة أهمية كبيرة فى نشأة المدن التى نجدها فى نقط متعددة من حوضه . وجميع هذه المدن تدين بنشأتها للنهر نفسه كما ترجع شهرتها إلى تأثرها بحركة الملاحة والتجارة التى تمر فى النهر وروافده ، وإلى جانب هذين العاملين تتأثر بموقعها على طول الطرق التى تجتاز حوض الرين وترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظام الأودية وتوزيعها[٥٩] . ذلك لأن هذه الأودية هى فى الواقع الطرق الطبيعية التى قطعتها مجارى روافد الرين

فى الهضاب التى تدخل ضمن حوضه . على أنه إذا كان لملاحة الرين الفضل الأعظم فى نشأة الكثير منها ، فإنه بطبيعة الحال قد ترتب على تطورات ملاحة النهر اختلاف عظيم فى الأهمية النسبية لكل منها . فمثلا نجد أن الملاحة الجدية تبدأ فى الوقت الحاضر من ستراسبورج بعد أن كانت نقطة ابتدائها عند مانهيم التى تقع عند التقاء الرين برافده نكر . ويجدر بنا أن نلحظ أن القسم الشمالى من الرين الأخدودى يشتمل على عدد عظيم من المدن الكبيرة بحيث يبدو هذا العدد أكثر مما تستلزمه الضرورة ، وأعظم مما تتحمله ظروف الإقليم نفسها . ويلوح أن الداعى الذى شجع على نشوء هذا العدد الغفير من المدن الكبيرة هو الموقع الجغرافى ، وما تمتاز به البيئة من جودة التربة واعتدال المناخ . يضاف إلى ذلك عامل آخر قد يكون له أثر عظيم ، ونقصد أن هذه المدن نشأت فى ظروف سياسية تختلف عن ظروف الوقت الحاضر ، بمعنى أنها نشأت فى وقت كانت فيه ألمانيا الحالية مقسمة إلى عدد كبير من الدويلات السياسية المستقلة ، وفى كل منها قامت وتعددت العواصم السياسية[٦٠] . ولما تغيرت الظروف السياسية حدثت تغيرات فى الأهمية النسبية ، إذ يظهر بعض هذه المدن كأنه آخذ فى الاضمحلال والنقصان ، ومثال ذلك دارمشتات Darmstatt وفرمس Worms ، وحتى ماينز ذاتها ، تلك التى ترجع نشأتها إلى عهد الرومان القدماء ، فيلوح أنها قد وصلت إلى أعظم مدى من النمو والاتساع وأنها قد بدأت دور الذبول والانكماش .

على أنه يوجد من بين هذه المدن عدد آخر قد تضاعف عدد سكانها وازدادت أهميتها بعد أن أصبحت مراكز لصناعات جديدة معتمدة على سهولة النقل وتوافر موارد الثروة المعدنية وبخاصة الفحم والحديد . ومثال ذلك مانهيم ولدفجسهافن وهيدلبرج وفرنكفورت وكارلسروه .

أما مدن الألزاس واللورين فترتبط فى مواقعها بعلاقتها مع الأودية الطبيعية[٦١] . ومن أهم المدن ساڤرن Saverne التى تقع عند مقدمة الفوج ، وستراسبورج التى تقع عند التقاء الرين بنهيره إل Ill ، ولا تبعد عن الرين بأكثر من ميلين . وهناك

شلتشتات وكلمار وملهاوز ، وجميعها يدين بأهميته لوقوعه على النهر أو بالقرب منه ، وفى الوقت ذاته ترتبط أو تشرف بدورها على أحد الأودية الطبيعية الموجودة ، فمثلا تقع شلتشتات عند مخرج وادى لبراخ Liberach ، وتقع كلمار بالقرب من وادى نهر فشت Fecht كما تقع ملهاوز على حافة تلال سندجاو Sundgau عند مخرج عدد من الأودية تجتازها قناة الرين والرون . أما ستراسبورج فقد كانت أهمها جميعها لكونها تقع فى منطقة خصيبة وبالقرب منها يلتقى نهر إل بنهر بريش Breusch . وبوساطة هذا الوادى يمكن الوصول إلى سفوح القوج الوسطى كما ينتهى اليها عدد من الطرق الطبيعية الآتية من جهة الغرب ، وتجرى الخطوط الحديدية فى كثير من هذه الطرقات فى الوقت الحاضر . وقد تطورت أهمية كل من ستراسبورج وملهاوز وكلمار بعد أن أصبحت جميعها مدنا صناعية . وقد ساعد موقع ملهاوز على حافة الفوج وفى منطقة التقاء السهل بالجبل على إعطائها ما تحتاج إليه صناعتها الرئيسية ، ونقصد غزل القطن ونسجه ، من القرى المائية الضرورية للعمليات الصناعية المختلفة منذ زمن بعيد ، وقد بدأت فيها الصناعات القطنية على نطاق واسع منذ أواسط القرن الثامن عشر ، وبعد ذلك أخذت تخطو فى نهضتها الصناعية خطوات سريعة موفقة . أما متز Metz التى تقع عند التقاء نهير سى Seille بالموزل فإنها فضلا عن موقعها الجغرافى الحربى وعلاقاتها الطبيعية بكثير من الأودية التى تقطع الهضبة قد أصبحت مركزاً حربياً ، وفى الوقت ذاته ترتبط بمواصلات سهلة بفضل الخطوط الحديدية والقنوات المائية مع مراكز تعدين الحديد الشهيرة وبخاصة مع مناطق التعدين فى ثيونفيل Theonville ولونجى وبرى فى الشمال والشمال الغربى (٦٢) . وقد كانت نقطة ذات أهمية أيام الرومان الذين اتخذوا منها عاصمة محلية لأقليمها ، ثم بعد ذلك صارت عاصمة لمقاطعة أوستراسيا Austrasia بعد سنة ٥١١ م ، وعاصمة للوثرنجيا Lotheringia بعد سنة ٨٤٣ م وخضعت لنفوذ فرنسا سنة ١٦٤٩ م وكانت بين النقط الشهيرة التى حصنها ڤوبان Vauban .

وإذا نظرنا إلى نانسى التى تقع على نهير ميرته Meurthe وجدناها ذات تاريخ

سياسى عظيم إذ أنها جمعت بين الأهمية الحربية والأهمية الصناعية والتجارية[٦٣].
ومثلها تول التى غطت شهرتها الحربية على شهرتها فى النواحى الأخرى . ذلك أنها تحرس وتشرف على الطريق الطبيعى الذى يبدأ من الموزل ويتجه غربا إلى وادى الميز . كذلك حال سنت مهيل St. Mihiel وڤردان اللتين تقعان فى وادى الميز فكلتاهما تختص بشهرة حربية عظيمة وإحداهما تقع إلى شرق النهر على حين تقع الأخرى إلى غربيه . وجميع الطرق الطبيعية وسبل المواصلات الحديثة ، التى تصل بين حوض باريس من جهة وستراسبورج من جهة أخرى ، لا بد لها أن تختار المرور إما عن طريق تول أو ڤردان . لهذا كله كانت ڤردان من أهم الحصون الحربية منذ عهد الرومان ، وفى الوقت ذاته تبدأ عندها ملاحة نهر الميز ، وهذا أعطاها أهمية تجارية .

ويلحظ أن النهضة الصناعية التى شملت إقليم اللورين وكثيراً من أجزاء الألزاس قد كان لها أكبر الأثر فى ظهور عدد من المدن الكبيرة الجديدة مثل جيف Jeuf ، وهومكور Homecourt وأبوى Auboue ، وهذه كانت أصلا عبارة عن قرى صغيرة نشأت وسط مناطق زراعية متوسطة الخصوبة ، ولكنها تقدمت وتضاعف عدد سكانها بعد أن بدأ الاستثمار الاقتصادى للثروة المعدنية حولها . كذلك عظمت أهمية مدينة تريف Trève التى تتحكم فى الموزل الأدنى ، وتقع بالقرب من التقاء نهيرات ساور Sauer والسار Saar والموزل ؛ كما إنها نقطة تلتقى عندها طرق النقل إلى لكسمبورج ومقاطعة السار المجاورة . وقد حافظت على أهميتها الحربية أيضاً إلى جانب أهميتها الرئيسية كمركز لتبادل الغلات الزراعية والرعوية والصناعية .

وبالجملة فإن مدن اللورين يسودها الطابع الحربى لأن مواقعها تكون عادة بحيث تشرف على الفتحات (Gaps) الطبيعية فى هذه التضاريس المعقدة ، أو عند مخرج الأودية التى تخترق الهضبة ، أو عند نقط تسهل حمايتها ، أو حيث تلتقى المجارى المائية العديدة ، وأخيراً حيث تسهل ملاحة هذه المجارى .

ويلوح أن ستراسبورج قد نهضت وتقدمت بسبب تعدد العوامل الجغرافية التى ساعدت على ذلك[٦٤] ويمتاز موقعها بأنه يمثل نقطة تتلاقى عندها طرق طبيعية عديدة كما إنها تقع عند التقاء قنال الرين والمارن مع نهر إل ILL . وهى كمثيلاتها من مدن الألزاس لم تنشأ كمدينة تعتمد على النهر ، أو أنها مدينة بوجودها لفضل النهر وحده ، بل فى الواقع نجدها قد نشأت كمعقل يشرف على الطريق الطبيعى الذى يستخدم « عنق سافرن » Col de Saverne بادئاً من وادى الرين مجتازاً هضبة الفوج فى أضيق اتساع لها قاصداً إقليم اللورين . وبفضل استخدام فتحة برجندى يمكن الوصول إلى حوض باريس . وعلى الجانب المقابل يؤدى طريق وادى كنزج Kinzig إلى السهل الألمانى الشمالى ، كما أنه فى منطقة المرتفعات التى تقع إلى غربيها نجد أن نهر زورن Zorn الصغير قد نجح لدرجة كبيره فى حفر مجراه وتكوين واديه الذى تتبعه فى الوقت الحاضر الطرق البرية ، والقنوات المائية ، والخطوط الحديدية ، التى تصل بين ستراسبورج وتول ونانسى وغيرها .

يضاف إلى ذلك اتساع سهل الرين الأخدودى خلف ستراسبورج ؛ ولما كانت التربة هنا خصبة لأنها من اللويس ساعد ذلك ستراسبوج على أن تصبح مركزاً متوسطاً لمنطقة تعتبر من أخصب جهات حوض الرين جميعه[٦٥] . وليست ستراسبورج حديثة العهد لأنه يلوح أن الكلت القدماء قد اختاروا هذا الموقع واستقروا فيه . وقد كانت منطقتها عبارة عن جزيرة تحيط بها فروع مجرى نهر إل . ولما جاء الرومان جعلوا منها حصناً ومعقلا للإشراف على وادى نهر إل ثم أخذت بعد ذلك فى النمو حتى أصبحت من أعظم مراكز الحضارة الرومانية فى الحوض ، وتلتقى عندها الطرق الرومانية العظيمة الآتية من ريمس Reims ومايتز وغيرهما . ولما جاءت جماعات الألمانى Alemanni حافظت ستراسبورج على أهميتها وأصبحت سوقا عظيمة لتجارة هذا القسم من حوض الرين . وبفضل ملاحة نهر إل كانت مواصلاتها سهلة مع كلمار وغيرها من مدن الإلزاس ، وبفضل ملاحة الرين كانت

على اتصال سهل بكولون وغيرها من المدن القديمة الكبيرة فى ذلك الوقت . وقد حافظت ستراسبورج على أهميتها فى القرون الوسطى وكان نهر إل الطريق الطبيعى لمواصلاتها مع ملهاوز وشلتشتات . ولما جاء القرن التاسع عشر وانتشرت عمليات حفر الترع وشق القنوات أصبحت ستراسبورج ذات مركز متوسط ممتاز ، وتقوم على خدمتها شبكة مائية عظيمة تربطها بالأقاليم المجاورة . كذلك جاءت الخطوط الحديدية تتبع طرق الاتصال الطبيعية ، وساعد كل ذلك على جعلها مركزاً تجارياً عظيما .

وفى الوقت الحالى زادت أهمية ستراسبورج كثيراً . ذلك لأن الملاحة فى الرين قد امتدت نحو الجنوب حتى وصلت إلى بال ، وبذلك أصبحت ثغراً شهيراً عظيما ترسو عنده السفن التى تتجه شمالا نحو مصب النهر أو جنوباً نحو أعاليه . وإلى جانب ذلك تلتقى عندها الخطوط الحديدية التى تقطع وسط أوربا من الغرب إلى الشرق أو من الشمال إلى الجنوب ، وعلى هذا أصبحت محطة هامة للاتصال البرى فى هذا القسم من القارة[٦٦] .

ولا تختلف المدن الأخرى ، التى نشأت فى حوض الرين ، عن ستراسبورج ، وجميعها يستفيد من الملاحة فى النهر ، كما تستفيد من مواقعها بالنسبة للطرق الطبيعية التى تتبع أودية الأنهار العديدة . ويمتاز الجزء الشمالى من حوض النهر بوجود أمثلة كثيرة من هذه المدن الهامة[٦٧] ، ونذكر على سبيل المثال بعض المدن الألمانية مثل كارلسروه التى يرجع تأسيسها إلى القرن السابع عشر ، وعلى ذلك فهى أحدث عهداً من ستراسبورج ، وتقع على الجانب الأيمن للنهر ، بعيدة قليلا عنه ، وتتحكم فى الطريق إلى الشرق بوساطة فتحة فورزهايم : Pforzheim . أما ستتجارت فتستمد أهميتها من موقعها على النكر ، وإشرافها على عدد من الطرق الطبيعية التى تؤدى إلى الجنوب . وإذا نظرنا إلى مانهايم وجدناها تقع عند نقطة يصلح فيها النهر للملاحة الكبيرة ، وبالقرب منها يلتقى النهر برافده نكر . وقد أصبحت مانهايم من أعظم موانى الرين ومخزنا لتجارة النقل النهرى ، وبخاصة تجارة النهر

الآتية عن طريق روتردام ، وفى الوقت ذاته تجتمع فيها غلات حوض نهر نسكر ، وتقوم فيها صناعات عديدة . أما ماينز فتقع بالقرب من التقاء الرين بنهيره ماين . وهنا يلتقى الطريق الشمالى الجنوبى الذى يجرى فيه نهر الرين ، والذى حدد اتجاهه موقع مرتفعات تاونس ، بطريق آخر يتبع وادى نهر ماين ، وتقوم فى ماينز الصناعات التى تعتمد على مواد أولية مستمدة من البيئة الغابية الرعوية المحلية(٦٨) .

وقد أسس الفرنجه مدينة فرنكفورت على نهر ماين منذ زمن بعيد . وقد أعطاها موقعها على نهير ماين أهمية عظيمة ، إذ أن هذا النهير هو طريقها الطبيعى إلى وادى الرين ذاته ، كما يصلها وادى نهير ناهى Nahé باقليم بنجن Bingen . وهناك طريق شمالى يتبع وادى فتراو Witterau يربطها بمنطقة هانوفر . وتوجد طرق أخرى تتبع أودية كنزج Kinzig وفولدا Fulda وما يتفرع منهما ، وهذه تربطها باقليم ليبزج فى الشرق(٦٩) .

أما كوبلنز فتقع على النهر عند نقطة تلتقى فيها طرق طبيعية عديدة ، فمثلا هناك طريق الموزل الآتى من الجنوب الغربى وطريق نهر لان Lahn الآتى من الشرق . غير أن الطريق الأول كثير الانحناء والالتواء وتتعذر الملاحة فى كثير من أجزاء الموزل . وليس أدل على كثرة الانحناء والالتواء فى مجرى الموزل من أن مدينة ترير (تريف) Trier : (Tréves) تبعد عن كوبلنز بطريق مستقيم مباشر بنحو ٦٠ ميلا ، ولكنها بطريق الموزل تبعد عنها بنحو ١١٠ ميلا . أما الطريق الثانى فيتقابل مع الطريق الذى يؤدى إلى بنجن ، وبوساطة وادى ناهى Nahé يؤدى إلى متز .

ويلحظ أنه فيما بين كوبلنز وكولون لا توجد مدن كبيرة على النهر ، اللهم إذا استثنينا مدينة بون Bonn ، التى تقع عند نهاية خانق الرين ، والتى تقع مواجهة لنقطة تقابل نهر زيج Sieg ، الذى يمكن اعتباره طريق الاتصال الطبيعى نحو الشرق ، بين مرتفعات ساورلند وفسترلند Sauerland and Westerland .

أما كولون ، التى تعتبر ثالث مدن ألمانيا أهمية وعظما ، فتقع عند ملتقى الطرق التى

تستعملها الخطوط الحديدية الآتية من الجنوب ، والتي حدد مواقعها خانق الرين الشهير ، وبعد ذلك تتفرطح وتنتشر بمجرد ترك منطقة الخانق فى اتجاهات مختلفة . ومن جهة أخرى نجد الطرق الآتية من الغرب ونعنى من فرنسا وبلچيكا تسير فى محاذاة حافة هضبة الأردن ، وبعد ذلك تعبر نهر الرين عند كولون (٧٠) . ويلوح أن الرين كان منذ أقدم العصور صالحاً للعبور عند نقطة موقع هذه المدينة . ولذلك كانت كولون مركزاً رومانياً عظيماً ، أنشأ بجواره قسطنطين العظيم ، جسراً كبيراً يصل بين ضفتى النهر ، بوساطة جزيرة كانت تعترض مجرى النهر ، ولكنها أصبحت جزءاً من الأرض المجاورة ، بعد إن تحول مجرى النهر عنها . وقد ظل هذا الجسر حتى أيام شرلمان ثم هدمته الجماعات الجرمانية التى جاءت بعد ذلك . وفى القرون الوسطى كانت كولون مركزاً عظيماً للتجارة ، وفى الوقت ذاته أصبحت مركزاً دينياً رئيسياً كما تشهد بذلك كاتدرائيتها الشهيرة . وقد استفادت كولون من التحسن العظيم الذى طرأ على ملاحة النهر حتى أصبحت المراكب الكبيرة قادرة على الوصول اليها . ويمكن فى الواقع اعتبار كولون الحد الفاصل بين الملاحة المحيطية والملاحة النهرية ، وقد أصبحت نقطة تنتقل فيها المتاجر من المراكب المحيطية إلى النهرية ، ومن الطرق البرية إلى النهر ، وهكذا زادت أهميتها فى الوقت الحاضر . وعلاوة على ذلك فإن كولون تعتبر ذات موقع حربى عظيم يحمى منطقة الرهر الصناعية المجاورة . وهناك أيضاً آخن أو إكس لاشابل ، التى كانت عاصمة شرلمان ، والتى تقع وسط منطقة غنية بالفحم والحديد ، وتقوم بها صناعات عدة . كذلك دوسلدورف وديسبرج فإنهما من أهم الموانى النهرية على الرين ، وقد ساعد على توسعهما النهضة الصناعية التى شملت إقليم الرهر الغنى بثروته المعدنية (٧١) .

ويجدر بنا أن نذكر أن الحوض الأدنى للرين يختلف عن بقية الأجزاء الأخرى من الحوض من حيث أن نشأة المدن هنا قد تأثرت ، لدرجة كبيرة ، بفعل التغييرات الكثيرة فى الجغرافية الطبيعية ، كما تأثرت نتيجة للظروف السياسية السائدة . والواقع أن هذه الجهات يمكن اعتبارها حديثة نسبياً فى أهميتها ، وأن

نهضتها إنما ترجع فى أساسها إلى نهضة أوربا الغربية والجنوبية بصفة عامة . وليس من شك فى أن الرين كان العمود الفقرى فى نهضة مدن الحوض الأدنى ، إذ أن مصباته المختلفة كانت الطرق الرئيسية الطبيعية للوصل بين الأقاليم المختلفة . ومنذ أيام الرومان القدماء ، كانت المدن الموجودة القليلة تعتمد على النهر فى نهوضها التجارى ، ولو أنها جميعاً كانت تتأثر بحالة الجماعات الجرمانية ، التى كانت تسكن الجانب الشرقى من الحوض ، والتى كانت كثيرة الإغارة عليها . ويلحظ أن الجهات السهلة التى كانت تغطيها الغابات ، كذلك أودية النهيرات العديدة ، مثل السامبر والميز ، لم تشجع ظروفها العامة قيام المدن العظيمة ، ولو أن عدداً من القرى الكبيرة كان قائما فى الجهات الخصبة ، ومثال ذلك منطقة هسباى Hesbayé التى نشأت فيها مدينة لييج . وفى أقصى الغرب أثرت الحروب الصليبية فى نهضة بعض المدن الفلمنكية مثل بروج Bruges وغنت ، وفى الوقت ذاته حدثت تغييرات عظيمة فى مجارى دلتا الرين وفروعها العديدة ترتب عليها إن أصبحت هذه الموانى من أصلح الجهات التى يمكن سكناها ، إذ أن مواقعها ، بالقرب من مصبات الرين ، سهلت الانتفاع بالمجارى المائية الملاحية فى أمور النقل التجارى . وقد حافظت غنت على أهميتها بسبب وقوعها عند تقابل نهر الشلد بنهر ليس Lys ، وبفضل استخدام النهرين فى الملاحة ، على الرغم من أن الشلد قد غيّر مجراه كثيراً فى العصور التاريخية . وفى العصور الوسطى كانت منطقة غنت عبارة عن شبكة من القنوات والمجارى المائية المتصلة بالنهرين السابق ذكرهما ، وقد كانت عاصمة الفلاندر سنة ١١٨٠ م ، وكانت ولا تزال مركزاً مهماً لصناعة الصوف .

أما أنتورب فإن النهر يأتى إليها بكميات عظيمة من الرواسب ، ولذلك أصبح من الضرورى ، إذا ما أريدت المحافظة على صلاحيتها الملاحية ، القيام بعمليات التطهير المستمرة . وتمتاز منطقتها بكثرة مستنقعاتها ، غير أن قيامها كثغر مصبى قد أثر كثيراً فى الثغور الأخرى مثل بروج ، ومنذ القرن الرابع عشر أصبحت منافساً خطيراً للموانى المصبية الهولندية الرئيسية ، ونقصد امستردام وروتردام . وقد

كان القرن السادس عشر عصرها الذهبي ، لأنها بعد ذلك تأثرت فى نهضتها التجارية والصناعية بالتقلبات السياسية المحلية والخارجية . وليس من شك فى أن لييج ذات موقع جغرافى عظيم الأهمية ، لأنها أهم نقطة فى حوض الميز ، إذ تقع على الطريق الرئيسى ، الآتى من السهل الأوربى الشمالى ، الذى يؤدى إلى كولون واكس لاشابل ، وفى الوقت ذاته تتحكم فى مدخل وادى الميز الضيق ، ويتقابل عندها وادى ڤيدر Vesdre الآتى من الشرق ، ووادى أورته Ourthe الآتى من الجنوب ، وقد أصبحت مركزاً سياسياً ودينياً منذ سنة ٥٥٨ م . ومنذ القرن العاشر حتى القرون الوسطى حافظت على أهميتها وضاعفت عدد سكانها . أما فى الوقت الحاضر فقدأصبحت مركزاً صناعياً عظيما ، إذ أنها تقع فى منطقة غنية بالفحم والحديد ، وترتبط إقتصاديا بموارد الثروة المعدنية العظيمة فى مقاطعة لكسمبورج المجاورة(٧٢) .

ولا تختلف مدن هولند الكبرى عن نظائرها البلچيكية وجميعها مدن بأهميته إلى مواقعها بالنسبة لمصبات الرين والميز والشلد . والواقع أن دلتا الرين ، بصفة خاصة ، قد دخل عليها من التعديل والتغيير الشىء الكثير ، وكانت المدن الهولندية شديدة التأثر بهذه الظاهرة ، غير أن ذلك لم يمنع ظهور عدد من الموانى المصبية الهامة ، التى أخذت تنمو وتكبر تبعاً لازدياد أهمية الرين الملاحية(٧٣) .

وإذا كانت هولند اقليم القنوات فإن هذه جميعاً ظهرت لخدمة مصالح المدن المتعددة مثل اترخت وليدن وامستردام وروتردام . وهذه الأخيرة قد أصبحت المنفذ الرئيسى لتجارة النقل المحمولة على الرين وما يتصل به . وإذا كانت امستردام قد نزلت عن مكانتها كمنفذ آخر لتجارة الرين بعد نهوض أنتورپ ، فإنها بفضل قناة بحر الشمال مازالت تلعب دوراً عظيما فى تجارة الرين حتى الوقت الحاضر .

هذه بعض نواحى أهمية الرين الطبيعية بالنسبة لحوضه . أما أثره فى الجغرافية التاريخية والسياسية فسيكون موضوع القسم الثانى من هذا البحث .

مراجع « القسم الأول »

1— Vivien de Saint Martin "Dictionnaire de Géographie" Tome V. pp. 104-106.

2— Shackleton M.R. "Europe, a regional study", London 1934 pp. 246-248.

3— Vivien de Saint Martin "Ibid" pp. 106-107.

4— Stembridge J.H. "Germany" London 1932 pp. 24-27.

5— Vivien de Saint Martin "Ibid" p. 105 etc.

6— Cundall L.B. "Western Europe" London pp. 262-270 and 359.

7— Vivien d Saint Martin "Ibid" p. 107 etc.

8— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 15-16.

9— Ormsby H. "France, regional and economic geography", London pp. 37-38.

10— (a) Cundall L.B. "Ibid" pp. 77-79 etc.
(b) Ormsby H. "Ibid" pp. 345-349.

11— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 26-27 etc.

12— Vivien de Saint Martin "Ibid" pp. 108-109.

13— Shackleton M. R. "Ibid" p. 247.

14— (a) Wallis B,C. "Europe" vol. I Stanford Compendium of Geography, London 1924 p. 426.
(b) Stembridge J.H. "Ibid" p. 31.

15— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 10-11.

16— De Martonne E. "Europe Centrale Geographie Universelle" Tome IV p. 165.

17— De Martonne E. "Ibid" pp. 141-146 etc.

18— Stembridge J.H "Ibid" p. 25.

19— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 25-29.

20— De Martonne E. "Ibid" pp. 147-149 etc.

21— De Martonne E. "Ibid" pp. 145-147.

22— (a) Shackelton M. R. "Ibid" 242-244.
(b) Stembridge J.H. "Ibid" p. 26.

23— Vidal de la Blache "Tableau de la geographie de la France" pp. 187-189.
24— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 24-27.
25— Cundall L.B. "Ibid" pp. 80-99 etc.
26— (a) Shackelton M.R. "Ibid" pp. 242-243.
(b) De Martonne E. "Ibid" p. 148.
27— (a) Stembridge J.H. "Ibid" p. 26.
(b) Shackleton M.R. "Ibid" pp. 244-247.
28— De Martonne E. "Ibid" p. 149.
29— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 15-16.
30— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 50-51.
31— De Martonne E. "Ibid" pp. 149-150.
32— Shackelton M.R. "Ibid" pp. 246-249.
33— Shackelton M.R. "Ibid" p. 243.
34— De Martonne E. "Ibid" pp. 157-159 etc.
35— De Martonne E. "Ibid" pp. 154-156 etc.
36— Stembridge J.H. "Ibid" p. 18.
37— Ormsby H. "Ibid" pp. 365-371.
38— De Martonne E. "Ibid" p. 159 etc.
39— Ormsby H. "Ibid" pp. 323-325 etc.
40— Wallis B.C. "Ibid" pp. 315-317 etc.
41— De Martonne E. "Ibid" p. 165.
42— Wallis B.C. "Ibid" pp. 324-326.
43— De Martonne E. "Ibid" p. 166.
44— De Martonne E. "Ibid" pp. 166-168.
45— De Martonne E. "Ibid" pp. 173-174
46— Démangeon A. "Géographie Universelle" Tome II, pp. 54-55 etc.
47— (a) Wallis B.C. "Ibid" pp. 417-418.
(b) Ormsby H. "Ibid" pq. 335-340 etc.
48— De Martonne E. "Ibid" pp. 175- 176 etc.
49— Démangéon A. "Ibid" pp. 17-22.
50— Cundall L.B. "Ibid" pp 234-235.
51— Démangeon A. "Ibid" pp 22-24.
52— Lévanville J. "The economic function of the Rhine" G. Review 1924, vol. 16 pp 244-246 etc.
53— Clapp J. "The navigable Rhine" Boston 1911 pp 4-9 etc.

54— Chisholm G.G. "Handbook of commercial geography" pp. 384-385.
55— De Martonne E. "Conditions physiques et économiques de la navigation Rhénane" Paris 1921 qp. 12-15 etc.
56— Haelling G. "Le Rhin" Paris 1921 pp 68-69.
57— Cundall L.B. "Ibid" pp. 56-57.
58-- Blondel G. "La question du Rhin" La Géographie 1920 pp. 23-30.
59— (a) Stembridge J.H. "Ibid" pp. 134-136.
(b) Démangéon A. "Le Rhin" Paris 1921 pp 291-293.
60— Shackelton M.R. "Ibid" p. 247.
61— Wallis B,C. "Ibid" pp. 317-319.
62— Ormsby H. "Ibid" pp. 341-350.
63— (a) Cundall L.B. "Ibid" pp. 86-90 etc.
(b) Wallis B.C. "Ibid" p. 324.
64— Ormsby H. "Ibid" pq. 386-387 etc.
65— Gallois "Le port de Strasbourg" Annales de géographie" 1919, pp. 414-424.
66— Levanville J. " The port of Strasbourg " G. Review, 1923 vol. 13 pp 243-254.
67— Cundall L.B. "Ibid" pp. 355-359.
68— Stembridge J.H. "Ibid" pp 75-77.
69— (a) Wallis B.C. "Ibid" pp 514-515 etc.
(b) Stembridge J.H. "Ibid" pp 77-78.
70— (a) Shackelton M.R. "Ibid" p 255.
(b) Wallis B.C. "Ibid" pp 515-517 etc.
71— Cundall L.B. "Ibid" pp 344-345 etc.
72— Wallis B.C. "Ibid" p 417 etc.
73— Wallis B.C. "Ibid" p 460 etc.

القسم الثانى

تطور أهمية الرين التاريخية

أوضحنا ، فى سياق بحث الجغرافية الطبيعية لحوض الرين ، كيف أن الأجزاء المختلفة من الحوض تحمل طابع الاختلافات العظيمة فى التضاريس والبيئة والمناخ ، ويظهر أثر ذلك كله فى نوع النشاط البشرى الذى يميزها . وقد سبقت الإشارة إلى الطرق الطبيعية التى تخترق أجزاء الحوض أو تصل بينها وبين الأقاليم المجاورة . والواقع أن الآثار المترتبة على اتجاهات هذه الطرق الطبيعية ، والفتحات التضاريسية ، التى تؤدى إلى جهات متباينة ، كانت ولا تزال عظيمة الأهمية والخطورة فى كل ناحية من نواحى الدراسة الجغرافية لهذا الحوض[1] ، وكثيراً ما ترتب على وجود الحواجز الطبيعية احتفاظ بعض البيئات بنوع من العزلة ساعدها على أن تظل متميزة فى جنسها ولغتها ونظام حياتها ، على حين تأثرت بعض البيئات الأخرى بسبب أن الهجرات البشرية ، جنسية كانت أو ثقافية ، كانت تنتقل بوساطة هذه الطرق والفتحات الطبيعية ، ويندر أنها كانت تبتعد عنها . وقد ظلت الهضاب والمرتفعات العالية حصوناً طبيعية تحمى البيئات التى تتاخمها ، إذ يتعذر دائماً اختراقها وعبورها ، وفى الوقت ذاته ساهمت جهات مختلفة من الحوض بنصيب كبير فى تنظيم وتشكيل الجغرافية البشرية فى أوربا الغربية والوسطى والجنوبية[2] . وقد كانت الهجرات الآتية من الشرق ومن الشمال تأتى بجماعات بشرية على حين كانت الهجرات الآتية من الجنوب ، ثقافية أو لغوية . ومثال النوع الأول هجرات الأجناس الشمالية والألبية والخليطة منهما فى أواسط أوربا وغربها ، ومثال النوع الثانى انتقال معالم الحضارة الرومانية ، وذهابها إلى أقصى حدود امتداد الأمبراطورية

الرومانية فى هذه الأقاليم . ويلوح أن حوض الرين كان حلقة الوصـل بين أواسط أوربا من جهة وبين مراكز الحضارة الرومانية من جهة أخرى . ذلك أن الاتصال بحوض البحر الأبيض المتوسط كان ممكناً عن طريق فرنسا بوساطة حوض الرون والساءون إلى حوض الرين ، ولم تتمكن غارات الجماعات المتبربرة ، التى اجتاحت الحوض فى العصور التاريخية ، من هدم معالم الحضارة التى ظهرت فيه ، لأنها قد تشربت كثيراً من الروح الرومانية[٣] ، ونتج عن ذلك أن هذه الجماعات نفسها قد تأثرت باحتكاكها المستمر ، وترتب على ذلك أنها أخذت شيئاً كثيراً من معالم هذه الحضارة . ولما كان هؤلاء قد جاءوا من الوسط أو الشمال أو الشرق قاصدين نحو الغرب فإن حوض الرين أصبح منطقة التقابل والاختلاط ، وتطورت أهمية بعض أجزائه ، إذ أنها أصبحت نقط الدفاع عن حضارات جنوبى القارة وغربيها ضد أمثال هؤلاء المغيرين ، أى أن حوض الرين قام بوظيفة الحامى لحضارات غربى أوربا وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وتركها تحيا وتنعم وتزدهر[٤] .

وقد ظل الرين ، مدى العصور التاريخية ، من أهم الطرق الطبيعية من الشمال إلى الجنوب فى أوربا الوسطى ، كما بقيت أودية نهيراته المتعددة تصل بين الشرق والغرب ، اللهم إذا استثنينا جزأيه بين بون وكولون وبين بال ومنابعه ؛ إذ كان واديه فى هذه الأجزاء عائقاً ومانعا ، لأن النهر يجرى بين مرتفعات عالية كانت صعبة الاختراق فى الماضى ، وبخاصة فى حالة الجماعات الكبيرة القوية[٥] . وهنا فى هـذه الأقاليم الجبلية المرتفعة وجد الفرنجة ملجأ ومستقراً لهم فى أواخر العهد الرومانى ، على حين ظلت المرتفعات الشرقية تسكنها جماعات أخرى بعيدة عن معالم الحضارة التى كانت تحملها وتنشرها الأمبراطورية الرومانية أثناء توسعها[٦] . ولما زادت أهمية تجارة حوض البحر الأبيض المتوسط والشرق بصفة عامة زادت أهمية وادى الرين كطريق طبيعى تجارى ، وتطورت أهمية كثير من المراكز الرومانية التى كانت قد نشأت أصلا لغرض حربى . ويمكن القول إن حوض الرين أصبح القاعدة التى استخدمتها الحضارة الرومانية ، فى عصورها المختلفة ، لنشر ثقافتها وديانتها ، وقد شارك

معظم الحوض حضارة روما فى عصور ازدهارها واضمحلالها[٧] . إذا كان هذا شأن حوض الرين منذ أقدم العصور فإن من الطبيعى أن تلتقى فيه المهجرات الجنسية وأن تترك آثارها فى ذلك التعقيد العظيم الذى يميز الدراسة الجنسية واللغوية للحوض . وقد ترتب على ذلك كله تعقيد تاريخ المنطقة حتى أصبحت ظروفها السياسية أعقد من ذنب الضب . ذلك لأن حوض الرين كان ولا يزال موطناً للنزاع والاحتكاك بين الشعوب التى يضمها حتى غدا هذا الكفاح ، أظهر ما يميز الدراسة التاريخية لهذا القسم من القارة . وقد تطور هذا الكفاح بشأن الرين حتى أضحى يمثل جزءاً رئيسياً فى سياسة الكفاح من أجل السيادة الكاملة فى هذا القسم من أوربا فى مختلف العصور ، وأدى ذلك إلى نتائج وتطورات خطيرة فى تاريخ القارة السياسى .

أما من الناحية الجنسية فيلوح أن دراسة حوض الرين قد تأثرت لدرجة عظيمة بسبب الغموض الذى يحيط باستعمال كثير من المصطلحات والتعبيرات الشائعة مثل « فرنسى » وغالى « Gaulish » وألمانى وجرمانى « Germanic » . وإذا ما كان الفرنسيون يعتزون ويفخرون بالانتساب إلى أصل غالى كلتى Celtic Gauls ، ويذكرون أن دماء هؤلاء مازالت تجرى فى عروقهم ، نجد أن الألمان (الجرمان) على الجانب الآخر من حوض النهر ينظرون إلى هذا الأصل الكلتى كعلامة على ما بين هذين الشعبين العظيمين من عداوة واحتكاك على ممر العصور[٨] . ومن المستحيل الإجابة على سبب هذا النفور ، ومن المتعذر الوصول إلى أصل هذا الشقاق الدائم حتى أصبح الباحث ، لفرط عجزه عن تفسير هذه الظاهرة ، كثير الميل إلى افتراض وجودها على شكل غريزة جنسية ، يمكن أن يرجع إليها تعليل المشاحنات المستمرة ، وتفسير مشكلات عدم التفاهم والتجانس[٩] .

وقد أثبت الكتاب منذ أقدم العصور آراءهم فى ذلك كله بوضوح وذكروا أنه على جانبى النهر ، توجد شعوب جرمانية وغالية ، تختلف فيما بينها ، وتتباين فى عاداتها ومميزاتها بحيث تكاد تكون متعارضة تماماً . وقد أدى ذلك إلى استنتاج كثير من

الفروض والاحتمالات التى أخذ الطرفان فى ترديد ذكرها كأنها حقائق علمية مع أنه لم تثبت صحتها فى أى وقت من الأوقات ولم تتيسر فى أى عهد مناقشتها وجلاء غموضها . وقد كان نصيب حوض الرين من هذا كله الشىء الكثير لأنه بطبيعة موقعه الجغرافى شريك فعلى ، وهو البودقة التى تتقابل فيها هذه النظريات والافتراضات والحزازات والمنازعات . ومن ثم أصبحت دراسته الجنسية على أعظم حال من التعقيد والغموض(١٠) ، وإذا تيسرت مناقشة كلتى النظريتين السائدتين على جانبى وادى النهر أمكن إظهار العيوب والأخطاء ، وبالتالى هدم هذين الصرحين القائمين على غير أساس .

ليس من شك أن الأراضى فى غربى النهر كانت مسكونة فى العصرين الحجريين القديم والحديث ، وأنه فى هذه البقاع عثر الباحثون على أقدم بقايا الإنسان الأوربى القديم الذى ما زال ممثلا فى أجناس الوقت الحاضر ، وكذلك تلك الأجناس التى بادت وانقرضت(١١) . ولسنا فى مقام التفصيل غير أنه يمكن أن نذكر أن الجميع يسلم بأنه قبل وصول الجماعات الغالية إلى هذه الجهات كانت قد استقرت هناك أجناس وشعوب أخرى قبلهم بزمن بعيد(١٢) ؛ ولكن المعلومات عن هؤلاء وعن مميزاتهم الجنسية فى هذا العهد السحيق ضئيلة للغاية . وفى الحق إن تاريخ الأقاليم الواقعة فى غربى الرين ، قبل القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد ، لا يقل غموضاً وإبهاماً عن فترة ما قبل التاريخ ، لقلة الأدلة والأسانيد التى يمكن الاعتماد عليها . وجل ما هو معروف بصفة عامة أنه حوالى القرن العاشر أو الحادى عشر قبل الميلاد ، كثرت هجرات وانتقالات الأجناس فى حوض البحر الأبيض ، غير أن الباحثين يختلفون فيما بينهم فيما يتعلق بأصولها الجنسية ، ومميزاتها ، والطرق التى اتبعتها والأهمية النسبية لكل منهما . وكل ما هو مؤكد أن هذه الهجرات ترتب عليها اضطراب وانتقال وطرد العناصر التى كانت موجودة من قبل ، أى أنه قبل مجىء الغال والألمان والنورمان كانت هذه الجهات مسكونة . ويكاد يكون من المتفق عليه بين الباحثين الأنثروبولوجيين أن الجنس الليجورى كان

ممثلا بنسبة كبيرة فى هذا الوقت [١٣] ، غير أن الستار لم يزح عن زمن هجرة هؤلاء الليجوريين ، والطريق الذى سلكوه ، وما زالت الإجابة الصحيحة حتى اليوم أمانة ووديعة فى بطن التاريخ القديم .

ومثل هذا الإبهام يظهر أيضاً فى حالة الغاليين Gauls ، الذين كثر النقاش حولهم ، وحول مميزاتهم وصفاتهم ، وقد أدى البحث عند بعض المؤرخين واللغويين إلى ظهور مشكلة المفاضلة بين هؤلاء وبين الآريين الأسيويين . والواقع أن تحديد المقصود من مصطلح مثل الغال أو بلاد الغال ، يختلف من عصر إلى آخر ، فمثلا كان قيصر يرى أن « بلاد الغال » تشمل جميع الأقاليم الممتدة بين نهر الرين وجبال الألپ شرقا والمحيط الأطلسى غربا ، والبحر الأبيض المتوسط وجبال البرانس جنوباً . ويرى غيره أن « بلاد الغال » تتسع أكثر من ذلك بكثير وأن الحدود التى سبق ذكرها ليست سوى حدود تقريبية ، وأن « بلاد الغال » كانت تشمل معظم أوربا القديمة ، وأن « الغاليين » وصلوا واستقروا فى جهات نائية مثل آسيا الصغرى ، وأنه إذا كان الباحثون يقرنون وصول الغاليين إلى « بلاد الغال » الأصلية حوالى ٦٠٠ ق م ، فإن شعبة منهم تعرف باسم « جويدل Goidels » قد وصلت إلى الجزائر البريطانية ، واستقرت ، كما استقر غيرها فى الأراضى المنخفضة ، وفلاندر وغيرها [١٤] . ويلوح أن الدافع لهذه الحركات الانتقالية الواسعة النطاق كان البحث عن المعادن أو بسبب تغيرات رئيسية فى المناخ . وقد كان الغاليون حوالى القرن الرابع قبل الميلاد ، قد انتشروا واستقروا فى كثير من الجهات فى شرق نهر الرين ، وبخاصة فى المنطقة ما بين نهرى الإلب والدانوب ، وأن هذه الأقاليم عرفت الغاليين وتأثرت بهم حتى فى هذا الزمن القديم . وليس أدل على صحة هذا الرأى من أن الغاليين الذين غزوا فرنسا فى القرن الثالث قبل الميلاد جاءوا مباشرة من بعض أجزاء حوض الرين الشرقية ، ونقصد حوض نهرى « نكر » و « ماين » ، ومن ثم عبروا الوادى إلى الأراضى الواقعة على الضفة الغربية . ومن المحتمل أن بعض الجماعات الغالية التى انتقلت إلى الغرب كانت ممثلة أيضاً فى جهات مختلفة

من ألمانيا مثل باڤاريا وسكسونى وحتى سيليزيا العليا .

وإذا كانت أسماء الجماعات الجرمانية قد عرفها اليونان القدماء فى القرن الأول قبل الميلاد ، وإذا كان الرومان القدماء قد عرفوا الجماعات الجرمانية بعد أن لمسوا غزو جماعات « الكمبرى » Cimbri والتيوتون ، فإن كتّابهم ومؤرخيهم بصفة خاصة قد أخطأوا وخلطوا فى التمييز بين هذه الجماعات الجرمانية وجماعات الغاليين . ومن الأمثلة على هذا الخطأ أن شيشرون Gicero اعتبر جماعات الكمبرى الجرمانية ضمن الجماعات الغالية . ويمكن تعليل هذا الخلط بأن الجماعات الجرمانية كانت قد خضعت لنفوذ الغاليين مدة طويلة حتى أصبح من المتعذر التمييز والفصل بينهما . وليس من شك أن غزو الغاليين للأقاليم الواقعة فى شرق الرين قد ترك أثراً عظيما فى حياة جماعات هذه الأقاليم ، وفى حضارتها وثقافتها وتقاليدها وعاداتها . كذلك ذكر تاسيتس Tacitus أن جماعات هلفيتاى Helvitii الغالية كانت فى هذا الوقت تسكن مناطق متفرقة على الضفة الشرقية للرين وبخاصة فى حوض نهر « ماين »[(١٥)]

وإذا نظرنا إلى هذا التوزيع الواسع النطاق ، لجماعات الغال فى هذا القسم من أوربا ، تعذر على الباحث قبول فكرة أن الغاليين هم الفرنسيون كما يدعى نفر غير قليل من الباحثين ، بل الحقيقة أنه يوجد فى أوربا عدد من الوحدات التى تشبه فرنسا فى تكوينها الجنسى ، وأنه إذا كان الغاليون قد وصلوا إلى غربى الرين فى هجراتهم وحركاتهم ، فإنهم قد جاءوا إليها لنفس الأسباب التى تدفع إلى الغزو والانتقال فى جهات أوربا المختلفة . وحتى فى عهد قيصر كانت فرنسا تنقسم إلى ثلاثة أقسام متميزة مختلفة ، من حيث الجنس واللغة والعادات والتقاليد ، فمثلا كان البلچ يسكن المنطقة ما بين نهر الرين ونهر السين ، وكان الاكيتانى Acquitani يسكن المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية ، على حين كان الغاليون يشغلون الجهات الأخرى فيما بين الجارون والسين والألپ والمحيط الأطلسى . وقد أكثر الكتاب من دراسة حياة الجماعات المختلفة ، ولو أنه يبدو أن الاختلاط بينها كان عظيما حتى فى هذا الوقت البعيد ، كذلك الاختلاط بين هؤلاء وبين الجنس الأصلى القديم ، ونعنى الجنس

الليجورى الذى كان موجوداً من قبل[١٦] . ويجدر بنا أن نذكر أنه فى القرن الثالث قبل الميلاد كانت المنطقة التى تسكنها الجماعات الغالية عرضة للهجوم والغزو من جهات متعددة ، بدليل أن الجماعات الجرمانية والرومانية واليونانية والقرطاجينية حاولت ، فى فترات مختلفة ومتكررة ، إخضاع هذه الأقاليم[١٧] ، وكثيراً ما انتهزت الجماعات الجرمانية والنورمانية فرصة انقسام الجماعات الغالية على نفسها ، واتحاد بعضها مع الغزاة والفاتحين للانتقام من البعض الآخر ، فمثلا اتحد الكمبرى والتبوتون الجرمانيون مع جماعتى هلفيتاى وتجوتينى Tigutini الغاليتين اللتين كانتا تسكنان المقاطعات الجنوبية فى ألمانيا ، وبفضل هذا الإتحاد نجحت فى عبور وادى الرين وغزو أقاليم الضفة الغربية . وإذا كان عهد الغاليين قد بدأ يتقهقر ويختفى فى القرون الأولى قبل الميلاد ليحل محله عهد الرومان ، فإن العصر الرومانى نفسه لم يستمر ولم يعمر طويلا ، لأنه بدوره أخذ يتقهقر ليخلى الطريق لعصر الفتح الجرمانى ، الذى ضاعف قوته بفضل كثرة هجرة الجماعات وانتقالها ، وبخاصة فى الفترة ما بين القرنين الثانى والسادس الميلاديين[١٨] .

وليس من شك أن الغزو الرومانى قد اجتاح معظم حوض الرين الغربى ، وترتب على ذلك التأثير فى التوزيع الجنسى ، فمثلا تركت حروب قيصر ، التى استمرت زهاء ثمانية أعوام ، كثيراً من الجهات فى حالة شديدة من الخراب والدمار والإعياء . وقد تحملت الجماعات الغالية أعظم نصيب من هذه الأضرار ، كما أن الحروب والغزوات ، التى رأتها القرون العشرة الأولى بعد المسيح ، كلها عملت على تقليل عددهم ، وإضعاف آثارهم الجنسية فى غربى الرين بصفة عامة[١٩] . وحين اشتدت وطأة غزو الجماعات الجرمانية كان الخراب والدمار يسود كثيراً من الأجزاء ، التى أصبحت فى هذا العهد أشبه شىء بمقبرة عظيمة متسعة ، تضم رفات هؤلاء الغزاة الفاتحين المختلفين ، الذين جاءوا باحثين عن أقاليم جديدة للفتح والغزو . وهكذا جاء القوط الغربيون والبرجنديون والفرنجة الذين انتشروا فى مختلف الجهات كما جاء النورمان الذين أغاروا على الشواطىء الشمالية واستقروا فيها[٢٠] .

ويحق للباحث أن يذكر أن الدماء الغالية ، التى كانت تتمثل بجلاء فى غربى نهر الرين ، قد أخذت فى الاختفاء بسرعة حوالى القرن الخامس الميلادى ، بسبب مجىء الجماعات الجرمانية على شكل هجرات وحركات متتالية ، نهبت الأرض وأفسدتها وتركتها فى كثير من الأحيان قاعاً صفصفاً . ويذكر هنرى مارتن Henry Martin أنه فى أوائل القرن الخامس الميلادى (٤٠٦ م) طرد الغاليون أو قتلوا أو شردوا أو استعبدوا فى كثير من جهات الرين الأدنى ، كما قضى على جميع نواحى النشاط الزراعى أو التجارى فى كثير من المدن البلچيكية بصفة خاصة . وقد جاءت أولى الغزوات الجرمانية الكبرى فى القرن الأول قبل الميلاد ؛ ذلك أن غزوة الكمبرى Gimbri استمرت أكثر من أربعة عشر عاماً ، وشغلت حروبهم العديدة الجيوش الرومانية زهاء خمس سنوات . وقد توالت الهجرات الجرمانية الواحدة تلو الأخرى ، فمثلا جاءت جماعات السويفى Suevi الجرمانية وعبرت الرين واستقرت على الضفة الغربية . ولا يعرف بالضبط أصل هذه الجماعات الجرمانية ، إذ لا يوجد من المعلومات عنها إلا الشىء القليل ، وفى كثير من الأحيان نجد هذا القدر الضئيل من المعلومات يختلف فيه العلماء وتتعارض فيه الآراء[٢١] . وحتى الكتاب القدماء المعاصرون قد اختلفوا فيما بينهم حول التكوين الجنسى للجماعات التى توجد على ضفتى الرين ، ويبدو هذا التناقض واضحاً فى محاولة التمييز بين « جرمانى ، وكلتى ، وغالى ، وغالاتى Galates »[٢٢] . ويلوح أن الأوصاف والمميزات التى جاء بها تاسيتس Tacitus عن الجنس الجرمانى لا تختلف كثيراً عن مميزات وصفات الجنس الغالى ، وتكاد تتشابه هذه الصفات وهذه المميزات حتى يصبح من المتعذر التفرقة والتمييز بين هذه الأجناس على هذا الأساس[٢٣] .

وليس من شك أن الجماعات الجرمانية حين أغارت على حوض الرين والجهات الواقعة فى غربيه جاءت عن طريق البر والبحر ، وكذلك بوساطة استخدام الأجزاء الصالحة للملاحة فى الأنهار والروافد العديدة . وقد لعبت الأودية الكثيرة دوراً هاماً لأنها كانت الطرق الطبيعية التى سلكتها هذه الهجرات والنزوات . ويمكن

القول إن أعظم الجماعات الجرمانية ، التي تركت آثارها الواضحة ، كانت جماعات البرجنديين والفرنجة . أما البرجنديون فيظن أنهم يرجعون أصلا إلى جماعات الفندال التي كانت تسكن شمال شرقى ألمانيا ، ثم اضطرت فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى إلى التقهقر والتراجع ، بعد أن نجح الرومان فى اجتذاب هجرتهم السلمية ، عبر وادى الرين ، إلى موطنهم الذى استقروا فيه ، بقصد مساعدة الرومان على الدفاع ضد غزو الجماعات الجرمانية . وقد أقطعهم الرومان الأرض اللازمة لهم فى المنطقة الواقعة بين الموزل والفوج والرين ولو أنهم اضطروا بعد ذلك بسبب ضغط جماعات الهون Huns ، الزاحفة فى أواسط القرن الخامس الميلادى نحو الغرب ، إلى التقهقر نحو الجنوب ولما جاء القرن السادس فقد البرجنديون وحدتهم ودخلوا ضمن نطاق دولة الفرنجة . أما الفرنجة فقد ظهروا بعد البروجنديين بقرنين من الزمان ، وما زال أصلهم وموطنهم الأول ، على عكس غيرهم من الجماعات الجرمانية ، لم يتقرر بعد ، وكل ما يعرف عنهم أنهم حاربوا الرومان ، وكثيراً ما اضطروا إلى التقهقر والتراجع ، غير أنهم فى النهاية نجحوا فى التقدم بجموعهم الغفيرة إلى حوض الرين وإلى الجهات التى تقع فى غربيه[٣٤] . ويظهر من محاولاتهم العديدة أنهم كانوا كثيرى الحركة والنشاط ، وأن مثابرتهم على غزو الضفة الغربية للرين قد توجت بالنجاح تحت زعامة كلودين Clodion ، إذ تمكنوا من إخضاع وفتح جزء كبير من بلاد الغال[٣٥] ، كما أن كلوفس الذى أعقب « كلودين » قد نجح فى صد هجوم الرومان وكبح جماح غارات جماعات « ألمانى Alemanni » والبرجنديين والقوط الغربيين . وفى عهد خلفائه ، تم تحويل بلاد الغال إلى دولة الفرنجة[٣٦] .

وإلى جانب الفرنجة نجد عدداً آخر من الجماعات الجرمانية يتقدم نحو حوض الرين ، وينجح فى عبوره والإستقرار على ضفته الغربية . وبطبيعة الحال كانت الغزوات المتكررة يصحبها التخريب والتدمير لجميع مرافق الثروة ، وكثيراً ما وجد السكان الأصليون أنفسهم مضطرين لأن يتراجعوا ويتقهقروا إلى الأقاليم الداخلية .

ولاريب أن مثل هذه الحالة المتكررة ، قد أثر كثيراً فى التكوين الجنسى ، والتوزيع اللغوى ، فى جهات الحوض المختلفة . ومن الأمثلة الظاهرة مجىء جماعات «ألمانى» عن طريق الرين واستقرارها على الضفة الغربية فى الألزاس واللورين ، كما أن القراصنة ، من السكسون والنورمان ، قد أكثروا من الغزو والاستقرار على طول السواحل الشمالية ، وكذلك الفندال الذين يعتبرهم تاسيتس وپلينى Pliny من الجرمان على حين يعتبرهم لاينو Lagneau وغيره من السلاف ، أخذوا يكثرون من غاراتهم على حوض الرين ، وعلى بلاد الغال فى النصف الأول من القرن السادس[٢٧] . ويلحظ أن هذه الجماعات الغازية كثيراً ما تركت وراءها بعض قواتها وجموعها حتى فى حالات اضطرارها إلى التقهقر والتراجع . وفى حالة حوض الرين يمكن أن يكون سبب ذلك خصوبه التربة وغنى الحيـاة النباتية والزراعية والصناعية والتجارية ، وكلها يمكن أن يشجع على البقاء والتعلق بأرض هذا الوطن الجديد ، أو أن بعض هـذه الجماعات قد سئم وكره الاستمرار فى العمليات الشـاقة الدائمة الناتجة عن الفتح والغزو باستمرار . وفى مثل هذه الحالة تستقر الجماعات فى هـذه الأوطان الجديدة ، وتفقد بالتدريج روابطها مع زملائها وبنى جنسها الذين تركوا لمواصلة الزحف إلى جهة أخرى .

هذه صورة بسيطة لحالة التعقيد الجنسى فى حوض الرين والأقاليم التى تقع فى غربيه فى هـذا العهد القديم ، ولا بد من الإشارة إلى وصول ووجود دماء أخرى لم يسمح المقام بذكرها بنوع من التفصيل ، فمثلا أكثر الهون والأفار فى الفترة ما بين ٩١٠ و٩٥٤ م من اجتياح الرين إلى اقليم الالزاس وبرجندى ، والاختلاط بسكان هذه الجهات[٢٨] . وبالجملة فإن سكان حوض الرين يدخل فى تركيبهم الجنسى دماء جماعات لا عدد لها ولا حصر ، وكل منها ينتمى إلى أصل مختلف ، وكل منها اختلط مع سلفه ، وورّث صفاته ومميزاته الجنسية لخلفه من بعد . ويعترف رپلى Ripley بصعوبة هذه الدراسة الجنسية ، ويشير إلى الغموض الذى لازم اسـتعمال مصطلح « كلتى » Celtic حتى سنة ١٨٦٠ م ، إذ أن الـكلتى ، كما وصفه الـكتاب

والمؤرخون القدماء ، لا بد أن ينتمي إلى جنس طويل القامة ، أشقر اللون ، تنطبق مميزاته على الجنس ، الذى كان يسكن شمال أوربا قديماً ، بناء على وصف قيصر . وقد ترتب على ذلك خطأ أو صواباً أن كثر الخلط بين « الكلتى والغالى » ، وكثيراً ما أرجع الاثنان إلى أصل جنسى واحد ، على أنه يمكن القول إن قيصر فى وصفه المذكور لم يكن يقصد الدراسة الجنسية البحتة ، بل ربما كان يريد التمييز والتفريق بين الشعوب والجماعات من الناحية السياسية أو الاجتماعية . ومع هذا الاحتمال فإن كثيراً من الكتاب القدماء لم يدققوا كثيراً فى استعمال هذه المصطلحات ، وخلطوا بينها فزادت المشكلة تعقيداً (٢٩) . ويكاد يجمع العلماء فى الوقت الحاضر فيما يتعلق « بالكلتى » على أنه أقرب إلى الجنس الألبي منه إلى أى جنس آخر ، وعلى ذلك اتجه الميل إلى اعتبار البلچ من أصل « كلتى » ، وأنهم جاءوا إلى حوض الرين الأدنى ، وأحضروا معهم لغتهم الكلتية ، التى كانت سريعة الانتشار بين الكلت القدماء ، الذين سبقوهم إلى سكنى هذه الجهات (٣٠) . أما البرجنديون ، الذين جاءوا من الشمال فى هجرات متعددة ، بجموع غفيرة ، فيرجعهم ريلى إلى الجنس التيوتونى ، ويؤرخ وصولهم فى القرن الخامس الميلادى ، ويذكر حسن استقبال الرومان لهم وفرضهم على السكان الأصليين أن يمنحوهم ١/٢ منازلهم ، و٢/٣ أراضيهم الزراعية ، و١/٢ ما يملكون من عبيد أو ارقاء (٣١) . أما سكان الالزاس واللورين فهم عبارة عن خليط جنسى ، وكان نهر الرين وفروعه وروافده الطرق الطبيعية التى اتخذتها الجماعات الشمالية فى هجرتها وانتقالها فى حوض الرين وما جاوره ، وأن وصول هؤلاء الشماليين كان مستمراً حتى كان عهد التطاحن السياسى بين أجزاء الحوض ، ذلك التطاحن الذى ترتب عليه قفل الباب فى وجه الراغبين من هؤلاء وأمثالهم ، الذين كانوا يجدون فى هذه الأقاليم منفذاً وقت الحاجة ، وملجأ إذا ما اشتد الخطب وقضت الضرورة . ومع هذا فإن كثيراً من جهات حوض الرين الأدنى ، وشمال شرقى فرنسا ، تسودها صبغة تيوتونية أكثر من النصف الجنوبى من ألمانيا ذاتها بفضل ما وصل إليها من الهجرات التيوتونية ، التى استمرت فى تدفقها منذ

أقدم العصور التاريخية ، والفرنجة الذين أغاروا على حوض الرين فى طريقهم إلى الأراضى الفرنسية المجاورة ، وحافظوا على دمائهم ولغاتهم ، بدليل أنهم تمكنوا من المحافظة على لغتهم الجرمانية لمدة ٤٠٠ سنة بعد غزوهم وفتحهم لهذه البلاد[٣٢] . وفى الوقت الحاضر ما زالت توجد بقية باقية من اللغات التيوتونية تمثلها لغة الفلمنكيين Flemish فى بلچيكا والأراضى الفرنسية المتاخمة لها . ويلوح أن هضاب ومرتفعات حوض الرين مثل الفوچ ، والغابة السوداء ، والأردن ، وما يتصل بها من الممرات والفتحات الطبيعية ، مثل فتحة بلفور ، لعبت دوراً رئيسياً فى التوزيع الجنسى[٣٣] . وليس من شك أن مناطق المرتفعات ساعدت على العزلة وقلة الاختلاط ، على حين كانت الأودية والمنخفضات مسرحاً لهجرات الجماعات التيوتونية ، التى توالى نزوحها واختلاطها فيما بينها كحال الجماعات السكسونية فى وستفاليا ، والفرنجة فى أودية ماين وموزل وغيرهما . ويمكن القول إن هضاب حوض الرين يسودها الجنس الألپى ، ويندر أن يتمثل هذا الجنس فى المنخفضات والأودية ، اللهم إذا استثنينا بعض شعب تمتد فى حوض موزل على جانبى متز ، ولكن يكثر الألپى الخليط فى وادى الرين ذاته ، وفى أحواض روافده وفى الفتحات الطبيعية ، التى اتخذتها الهجرات طريقاً لها كحال فتحة بلفور فى الجنوب ، وسهول فلاندر فى الشمال . وقد يجد الباحث فى دراسة توزيع اللغات وتحديد مناطقها ما يساعد على توضيح الدراسة الجنسية فى هذه المناطق ، ومثال ذلك توزيع كل من لغتى الفلمنك والولون . ويلوح أن هذا التوزيع اللغوى يتفق لدرجة عظيمة مع التوزيع الجنسى ، إذ أنه فى فلاندر تسود المظاهر التيوتونية بعد أن غطت على جميع المظاهر الأخرى القديمة ، وفى الوقت ذاته بقى الولون ، وهم أصلا من البلج ، فى منطقتهم محافظين على لغتهم لدرجة كبيرة على الرغم من طرد التيوتون لهم وانتقالهم نحو الجنوب . وفى العادة كان التيوتون يتبعون أودية الأنهار والنهيرات وقليلا ما كانوا يتركون المنخفضات إلى المرتفعات[٣٤] . ويجدر بنا أن نذكر أن مجىء الجماعات الجرمانية التيوتونية لم يكن جميعه على شكل غزوات حربية بل كثيراً ما جاءوا على شكل هجرات سلمية هادئة .

أما فى حالة الفرنجة الذين ما زالوا ممثلين فى وادى الرين وروافده ، مثل ماين وموزل ، وفى جهات كثيرة فى جنوب ألمانيا ، فقد كانت عندهم نزعة المحافظة على جنسهم ، ولذلك نراهم يعملون على قله الإختلاط بالعناصر الأصلية الأخرى ، فى الأقاليم التى وصلوا إليها واستقروا فيها(٣٥) ، وهم فى هذا العمل يشبهون العناصر الشمالية التى وصلت إلى كثير من جهات حوض الرين المنخفضة . ويرى پيك Peake أن أصل الفرنجة من الناحية الجنسية ما زال يحوطه الغموض والإبهام ، ولو أنه يرجح أنهم كانوا يمثلون اتحاداً من العناصر والجماعات التى استقرت أولا على الضفاف الشرقية للرين ، وأن هذا التجمع كان القصد منه زيادة قوتهم فى الفتح والغزو ، حين تحين الفرصة المناسبة ، للاغارة والزحف على حوض الرين والأراضى المتاخمة له فى الغرب . ويظن پيك أن هذا الاتحاد كان تحت إمرة طبقة استقراطية شمالية(٣٦) . ولما سنحت الفرصة الذهبية ، التى كانوا فى انتظارها ، عبروا الرين واحتلوا إقليم فلاندر سنة ٤٢٠م ، وتحت زعامة كلوڤس بدأوا سلسلة من الإغارات والفتوحات ترتب عليها أنهم أصبحوا سادة بلاد الغال ، التى منحوها فيما بعد اسمهم ، وهنا فرضوا أنفسهم طبقة حاكمة على السكان الأصليين ، وحافظوا لدرجة ما على دمائهم . ومن الجماعات التيوتونية التى وصلت إلى الرين الأدنى ، وأخذت تنتشر فى إتجاهات مختلفة جماعات السكسون والانجل والچوت والفريزيين ، وكلها ترجع فى موطنها الأصلى إلى شمال غربى ألمانيا(٣٧) . وقد استقر الفريزيون Frisians فى هولند ، وعلى طول الشاطىء بين مصب الرين ومصب نهر إلب ، كما استقر السكسون شرقى هؤلاء . ويرجح أن الچوت Jutes استقروا فى حوض الرين ، وبخاصة فى منطقة كولون(٣٨) . ويجب أن يضاف إلى هذه القائمة وصول جماعات الڤيكنج إلى الشواطىء الشمالية ، وجهات الرين الأدنى ، فى القرنين التاسع والعاشر(٣٩) . أما جماعات السواب Swabian الجرمانية فزحفت على الحوض الأوسط للرين فى ٢٠٣ م . وفى القرن الثالث دانت لهم جوانب نهر الرين ، إبتداء من وادى ماين فى الجنوب ، وامتدت منطقة نفوذهم حتى وصلت سفوح الڤوج فى الغرب . غير أن الفرنجة كانوا أعظم

أثراً وأشد خطراً ، لأنهم بعد أن استوطنوا الرين الأدنى نجحوا بالتدريج فى طرد الرومان من أقليم كولون ، ومن المنطقة ما بين الرين وميز ، واستمروا فى تقدمهم نحو الجنوب إلى ماينز ، واتجهوا نحو أودية الموزل والميز ، ومن هنا انتشروا غربا كما انتشروا جنوبا فى وادى الرين ذاته ، وأخضعوا جماعات ألمانى Alemanni ، التى كانت تسكن الإقليم قبل وصولهم . ولما جاء القرن السابع كانوا قد أخضعوا معظم الأراضى فى غربى الرين . وبعد أن أصبحت آخن مقر حكم شرلمان ، وقلب أراضى الفرنجة أخذ نفوذ الفرنجة يقوى فى شرق الرين . ويلوح أن آخن كانت ذات أهمية عظيمة بالنسبة لهذا الغرض ، إذ أنها كانت على مسافة قريبة من حدود منطقة السكسون الذين كانت جموعهم كثيرة الغارة على حوض الرين . ومن جهة أخرى فإنها بفضل وقوعها عند مقدمة سفوح هضبة الأردن ، كانت تقع على أقصر طريق بين حوض الرين وحوض باريس . ولهذا كله نجح شرلمان فى إخضاع السكسون الوثنيين وتحضيرهم من قاعدته آخن ، ومن ثم وسع نطاق ممتلكاته حتى أوصلها عبر حوض نهر فيزر إلى نهر إلب . وقد ترتب على هذا التوسع ازدياد فى مساحة دولته ، وفى عدد سكانها ، وبفضل هذه المجهودات وضع أساس الربط بين العناصر المختلفة من الفرنجة والسكسون والألمانى والبافاريين والثورنجيين وغيرهم من الجماعات الجرمانية التى اتحدت وكونت فيما بعد ما يعرف باسم ألمانيا كوحدة سياسية (٤٠) .

ويلحظ أن الفرنجة الغربيين تشربوا الحضارة الرومانية على حين ظل الفرنجة الشرقيون بعيدين عنها . ويرجع سبب هذا الإختلاف إلى أن الحضارة الرومانية لم تثبت أقدامها بتاتا فى حوض الرين الشرقى ، وأن إستمرار تدفق المرسلين والمبشرين من الرومان والأيرلنديين إلى محيط الفرنجة الغربيين واستقرارهم فيما بينهم قد ترتب عليه نشر المسيحية ، وتدعيم أسباب الحضارة الرومانية بين جموعهم . أما الفرنجة الشرقيون فظلوا بعيدين عن المسيحية والحضارة الرومانية ، وكان الحد الفاصل بينهما وادى الرين . وهكذا بدأت ظاهرة تطور حياة كل من ضفتيه فى اتجاه مختلف ومتعارض (٤١) . وقد ساعد على توسيع شقة الاختلاف نجاح الفرنجة الغربيين فى

تكوين وحدة سياسية خاضعة لنفوذهم ، على حين ظل أشقاؤهم فى الشرق منقسمين ومتفرقين بسبب تعرضهم لضغط الجماعات الجرمانية الأخرى الآتيـة من الشمال ، ومن الشرق والتى كثيراً ما استقرت فى وسطهم واختلطت بهم ، ونتج عن ذلك أنهم حافظوا لدرجة عظيمة على دمائهم التيوتونية . غير أن الانقسامات الداخلية بين هذه الجماعات الجرمانية كانت خطيرة ، لأنها أضعفتهم فى كفاحهم ضد جيرانهم فى الغرب . ذلك أن الفرنجة أخذوا يطردون جماعات الألمان نحو الجنوب ، ثم شددوا عليهم النكير حتى أجلوهم عن الألزاس ، وانتزعوا من أيديهم حوض نهر نـكر ، وهكذا وسع الفرنجة رقعة نفوذهم وسلطانهم .

ولما عظم تدفق الجماعات السلافية ، فى القرن السابع ، كانت الجماعات الجرمانية خط الدفاع الأول عن حوض الرين بصفة خاصة ، والحضارة الغربية المسيحية بصفة عامة . وبفضل مقاومة السكسون فى المنطقة ما بين نهرى إلب والرين ، وشمال نهر ماين ، ومقاومة جماعات ثورنجيا فى منطقة منابع نهر سال Saale أمكن الفرنجة والباقاريون والألمـانى الاحتفاظ بمناطق نفوذهم فى جنوب نهر ماين . وعلى الرغم من المقاومة الشديدة نجح السلاف فى الوصول إلى نهر ماين ، وأخذوا يتقدمون نحو وادى الرين . ومما يجدر ذكره أنه أمام هذا الخطر الداهم ، وضد هذا العدو المشترك نسيت الجماعات الجرمانية أحقادها واختلافاتها ، واتحدت لمحاربة هؤلاء الغزاة الفاتحين . وهكذا أصبح الـكفاح بين جنسين وحضارتين مختلفتين . ومن الطبيعى أن يكون الـكفاح شديداً وقاسياً ومريراً ، ولو أنه نجح فى طرد العناصر السلافية وارجاعها إلى حيث جاءت . ولما عاد السلاف والمجيار ، فى القرن العاشر ، إلى التحرك نحو الغرب ، كانت وحدات حوض الرين يسودها القلق والاضطراب ، لـكثرة ما بينها من التفكك والانقسام . ولم يقتصر الأمر على تفكك واضمحلال الوحدات على الضفة الشرقية للرين ، بل إن دولة الفرنجة الغربيين نفسها أصابها التصدع والانحلال ، وانقسمت إلى عدد من الوحدات الثانوية الصغيرة . وهكذا كان حوض الرين خاضعاً لنفوذ جماعات متعددة متنافرة أهمها السكسون ، والألمانى ، والفرنجة ، والثورنجيين ، والبافاريين .

ومن الطبيعى أن تؤدى هذه الحالة إلى تسهيل مهمة زحف العناصر السلافية والمجرية التى تمكنت فى سنة ٩٥٤م من اجتياح ألمانيا والوصول إلى حوض الرين الأدنى[٤٢]، ولو ان هذا العهد لم يطل كثيراً ، إذ طردت هذه الجماعات ، وفرضت عليها العودة إلى قواعدها الأصلية فى أواسط أوربا .

ويسير مع هذا التعقيد الجنسى جنباً إلى جنب تعقيد لغوى ظاهر فى جهات الحوض المختلفة . والواقع أن كل تحديد لغوى لا يمكن ارجاعه إلى عوامل جغرافية بل إلى عوامل تاريخية ورثها الخلف عن السلف[٤٣] . ويشتد الصراع فى حوض الرين بين مجموعتين لغويتين رئيسيتين إحداهما المجموعة التيوتونية والأخرى المجموعة الرومانية . ويعظم هذا النضال بصفة خاصة على الضفة الغربية ، وفى الأراضى المنخفضة، وفى أعالى حوض الرين فى سويسره[٤٤] . وأهم ما يسترعى النظر أن نطاق التكلم باللغة الألمانية يتسع كثيراً عن حدود الدولة الألمانية كوحدة سياسية قائمة بذاتها ، إذ تمتد منطقة اللغة الألمانية من حوض الرين وأواسط حوض الموزل غربا إلى نهر نيمن Niemen شرقا ، ومن شواطىء بحر بلطيق شمالا إلى أعالى نهر دراف Drave جنوبا ، مع إضافة عدد من الأماكن الألمانية المتفرقة الأخرى فى أواسط وجنوب شرق أوربا . ويلوح أن اللغة الرومانية فى الوقت ذاته لم تعبر الرين ، ولو أنها تقترب كثيراً منه ، وبخاصة فى منطقة فتحة برجندى ، وبالقرب من سفوح هضبة الفوج التى تغطيها الغابات ، والتى قامت بدورها كحاجز لغوى خطير الأهمية . وعلى العكس من ذلك نجد أن اللغات التيوتونية قد عبرت الرين وروافده العديدة حتى أنها أصبحت لغة سكان الموزل والسار وما جاورهما . كذلك كان أثرها فى سكان وادى « إل » فى الألزاس ووادى آر Aar وفى معظم حوض الرين الأعلى . ويرجح أن اللغات التيوتونية قد نجحت منذ زمن قديم فى أن تسود على لغة الكلت Celts الذين كانوا يسكنون هذه المناطق من قبل . وحتى فى أعظم عصور الحضارة الرومانية ازدهاراً ، حين أوصلت روما حدود حضارتها ولغتها إلى ما بعد الرين ، فإن هذه العملية كانت مؤقتة وسطحية ، ولم ترسخ أقدامها مطلقاً فى شرق نهر الرين بصفة

خاصة ، لأنه فى جميع العصور التاريخية ، كانت اللغات التيوتونية تسود هذه الأقطار [٤٥] . وقد ترتب على اضمحلال روما وتقلص نفوذها ، فى هذا القسم من أوربا ، طرد الثقافة الرومانية من كل جنوب غرب ألمانيا . وبعد أن استقر الفرنجة التيوتونيون فى وادى الرين الأوسط ، وفى وادى الماين ، وبعد أن غزت جموعهم بلاد « الغال » ، وتأثرت بالحضارة الرومانية المسيحية ، أصبح للمؤثرات التيوتونية النصيب الأوفى فى تشكيل اللغة الفرنسية المعروفة "Langue d'oil" . على أن التقاليد الرومانية ظلت قائمة ، على الرغم من غزو الجماعات الجرمانية ، كما أنه فى جنوب ألمانيا تطورت اللغة التيوتونية بفضل ما دخل عليها من المؤثرات الرومانية . أما فى الشمال فقد كان هذا الأثر ضعيفاً . وعلى هذا بقيت لغة جنوب ألمانيا تعرف باسم : High German ، على حين تعرف لغة الشمال باسم : Low German . وبين هذين النوعين ظهرت لغة وسطى تعرف باسم : Middle German . وقد ترجم لوثر الإنجيل إلى لهجة فرنكونية Franconian dialect ، وهى خليط ووسط بين الشمال والجنوب .

ويتعذر التحديد بين مناطق نفوذ كل من هاتين المجموعتين اللغويتين فى حوض الرين ، غير أنه يمكن القول إن خط تقسيم المياه غير الواضح بين الرين والرون فى منطقة برجندى ، يمكن اعتباره ، لدرجة ، كبيرة الحد الفاصل بين الفرنسية والألمانية . ويلوح أن هذا الخط لم يتعداه الفريقان المتنازعان [٤٦] . وقد ظلت الألزاس العليا وإقليم ساندجاو ، تتكلم الألمانية ، ولو أنها خضعت لحكم فرنسا أكثر من قرنين من الزمان . كما أن بقاء واستمرار اللغة الفرنسية فى جنوب شرق فرنسا ، على الرغم من شدة المؤثرات الخارجية ، يرجع فى الواقع إلى أن اللغة الفرنسية تطورت هنا ، وبعد ذلك انتقلت إلى باقى « بلاد الغال » [٤٧] . ويمكن اعتبار الأراضى المنخفضة منطقة انتقال بين المجموعتين ، إذ لا توجد حدود طبيعية فاصلة ، بل تشترك فى تضاريسها وبنيتها ومناخها وسكانها مع جارتيها . وإذا كانت هولند تتكلم لهجة تيوتونية قديمة ، فإن بلجيكا تتنازعها مؤثرات المجموعتين التى

تتمثل فى لغة كل من الفلمنكيين والولون[٤٨]. وقد زاد هذه المشكلة تعقيداً كون حوض الرين من أقل جهات أوربا استقراراً فى حياته السياسية ، وأكثرها اضطراباً فى علاقاته مع جيرانه .

وفى الحق إنه لا يوجد نهر آخر فى العالم ، يشغل مكانا بارزاً فى التاريخ أكثر من نهر الرين . ومنذ أقدم العصور شهد حوضه نزاعاً وكفاحا شبه دائمين بين شعوبه وبين جيرانه ، على الرغم من الظروف الجغرافية التى كان ينبغى أن تجعل من النهر وسيلة للربط والوصل وحسن التفاهم بين شعوب حوضه وجيرانه ، بدلا من أن يفصل بينهم . هذا هو الوضع الصحيح لوظيفة النهر ، وما يجب أن تكون عليه العلاقات بين أجزاء الحوض . وقد تطور هذا الكفاح بشأن النهر حتى غدا يمثل جزءاً رئيسياً من سياسة الكفاح للسيادة الكاملة فى هذا القسم من أوربا فى مختلف العصور . وترتب على ذلك كله ظهور نتائج خطيرة ما زالت آثارها ممثلة فى تاريخ أوربا السياسى الحديث . ويمكن القول إنه لم يحدث أن أثار امتلاك حوض نهر من الأنهار فى أية قارة من القارات مثل هذا الكفاح الدائم ، كما هى الحال فى حوض هذا النهر . ومما يسترعى نظر الباحث أن هذا الكفاح كان يتجدد ، وكثيراً ما تغيرت الظروف السياسية فى فترات قصيرة ، وتبدل حكامه فى العام الواحد . ويلوح أن نتائج هذا الكفاح لم تصل بعد إلى درجة يمكن اعتبارها نهائية ، ويمكن أن تستمر هذه الحال المضطربة ، وسوف يظل حوض الرين على شاكلته المتغيرة ما دام يمثل العمود الفقرى فى سياسات دول أوربا الغربية . وقد مضى على هذه الحال زهاء ألفين من السنين وأوربا تنشد حلا مرضياً لهذه المشكلة المعقدة بدون نجاح كبير ، إذ لم يصل أحد من طرفى النزاع إلى نتيجة حاسمة دائمة .

ويلحظ أن هذا الكفاح لم يكن دائماً بسبب الرغبة فى الحصول على موارد الثروة المختلفة ، التى توجد فى الحوض زراعية كانت أو معدنية ، بل يظهر أن هذا الكفاح كان فى كثير من الأحيان نتيجة الرغبة فى فرض نوع من السيادة على النهر ذاته لتحقيق غرض خاص . ويجمل بنا أن نتتبع المراحل المختلفة فى تطور

أهمية النهر منذ أقدم العصور . وقد بدأت المرحلة الأولى حين أخذت الجماعات التى تسكن ذلك القسم من أوربا ، الواقع بين نهر فستولا فى الشرق وشواطىء بحر الشمال فى الغرب ، وجبال الألپ فى الجنوب ، تكثر فى حركاتها وهجراتها نحو الغرب (٤٩) . ويلوح أن نهر الرين لم يقف حائلا دون زحفها وارتحالها . وقد كانت الجماعات الكلتية أولى الجماعات التى عبرت الرين وتوغلت عن طريق فتحة برجندى إلى أودية دوب Doubs والساءون والرون ، وفى الوقت ذاته تقدمت هذه الجماعات جنوبا حتى أعالى وادى الرين ، واستقرت على سفوح الڤوج وهاردفالد ، ثم واصلت السير جنوبا متتبعة مجرى النهر . غير أن بعضها أخذ يتجه نحو وادى موزل ، وبدأ ينتشر فى حوض ميز حتى استقر فى حوض شلد Scheldt ، وهكذا ثبت قدمه على شواطىء بحر الشمال . وقد استمرت هجرات الجماعات الكلتية قروناً عديدة . ولما بدأت جيوش روما تتحرك لتأمين سلامة حدود الامبراطورية الرومانية فى هذا الاتجاه ، كانت هذه السياسة الحجر الأساسى الذى قام عليه صرح الكفاح من أجل هذا النهر . وقد حاول الرومان منع هذه الجماعات من دخول أراضيهم ، والتاريخ الرومانى حافل بأخبار الحملات العديدة والحروب الكثيرة التى خاضها الرومان من أجل هذا الغرض (٥٠) . غير أن ذلك لم يمنع نجاح بعض هذه الجماعات المغيرة من الوصول إلى الرين والرون وتهديدهما فى أكثر من موضع . وقد تقدمت جماعات الكمبرى نحو الغرب وطرقت باب الامبراطورية الرومانية عند نهر الرون ، وكثر احتكاكها مع الرومان ، على حين كانت الجماعات التيوتونية الأخرى تطرق أبواب الألپ قاصدة إيطاليا ذاتها . ومما تجدر ملاحظته أن جماعات الكمبرى الكلتية اتخذت فى هجرتها وحركتها الأودية الطبيعية التى حفرها النهر وروافده التى تؤدى من حوض الرين إلى الجنوب ، كما أن الجماعات التيوتونية اتخذت الطرق الطبيعية الرئيسية التى تربط بين حوض البحر الأبيض المتوسط ، وبين حوض بحر الشمال . وحوالى سنة ٧٢ ق م تمكنت الجماعات الجرمانية من أن تستقر وتثبت قدمها على ضفاف الرين الأعلى ، ونجحت فى عبور نهر الرين فى منطقة التقائه برافده نكر .

ولما جاء قيصر بدأت سلسلة من الحروب ضد هذه الجماعات الجرمانية ، وكان الميـدان الرئيسى لها حوض الرين ذاته . وبفضل نجاح قيصر فى هزيمة الجماعات الجرمانية عند مداخل فتحة برجندى أصبح الرين الأعلى ، وقد تغيرت صفته كنهر يربط بين الأراضى على جانبه إلى حد سياسى وحاجز حربى يفصل بين قيصر والجماعات الجرمانية ، التى فقدت نفوذها وسلطانها على الضفة الغربية . وقد أطلق قيصر لفظ بلاد الغال على جميع الأراضى الواقعة فى غربى النهر ، وأعلن نفسه حامياً لسكانها من الجماعات الكلتية التى خلصها من نير ظلم وبطش الجماعات الجرمانية . وهكذا أخذت روما تبعث بعناصر حضارتها وثقافتها إلى هذه الأقاليم الرومانية الجديدة . ويمكن القول إن نجاح قيصر عند مدخل السهل بين هضبتى الفوج وچورا له أهمية تاريخية عظمى ، إذ إنه يمثل نهاية المرحلة الأولى من مراحل الـكفاح من أجل الرين والسيطرة عليه ، وبذلك وضع أساس هذا النوع الدائم فيما يتعلق بالسيطرة على حوضه . وقد انتفع قيصر من حالة الانقسام الداخلى التى كانت تسود جميع الجماعات الـكلتية ، وفى الوقت ذاته انتهز فرصة هـذا الضعف لإقامة حد فاصل مانع بين « بلاد الغال » من جهة ومناطق الجماعات الجرمانية من جهة أخرى . ولم يقتصر تنظيم هذا الخط على أعالى حوض الرين بل شمل حوض النهر جميعه . وقد قام قيصر بسلسلة من الحروب والأعمال الحربية للقضاء على خطر وتهديد الجماعات الجرمانية التى كانت قد استقرت على ضفتى النهر فى الحوضين الأوسط والأدنى ، ويمكن اعتبار هـذا العمل النواة الأصلية لمشكلة نهر الرين بين سكان ضفتيه الشرقية والغربية . وإذا كان قيصر قد فشل فى تثبيت أقدام الحضارة والسيادة الرومانية على الضفة الشرقية ، فإنه بهذا العمل قد أوضح السبيل لمن جاء بعده ، وهكذا أصبح الرين حداً حربياً كما كان حداً سياسياً[٥١] .

أما المرحلة الثانية فقد نجمت عن التطور العظيم الذى شمل الجماعات الكلتية التى استقرت فى بلاد الغال ، والتى بعدأن أصبحت ضمن نطاق الامبراطورية الرومانية ، بدأت تفقد مميزاتها القومية الأصلية بالتدريج بسبب تمثيلها الحضارة الرومانية ،

وكثرة الاختلاط بين الأجناس ، وعظم انتشار اللغة اللاتينية بينها على حساب اللغة الغالية القديمة . وقد أوضح قيصر آراءه بجلاء فيما يتعلق بالرين . ويلوح أن هذه الآراء المتعلقة بأهمية هذا النهر قد كتب لها الخلود ، لأنها أصبحت محوراً ثابتاً للسياسات المختلفة التي جاءت بعد ذلك . وتتلخص هذه الآراء فى أنه يرى أن يكون حوض النهر جميعه فى يد دولة واحدة لأن تقسيمه يؤدى إلى خلق مشكلات عويصة لا داعى لها . وقد سارت الجماعات الجرمانية على هذا النسق ، لأنها حاولت مراراً تثبيت أقدامها على ضفتى النهر كما أن روما ، ومن بعدها « بلاد الغال » نهجت هذا السبيل ، بدليل أن الرغبة فى التوسع شرقى الرين ، قد حملت الرومان على محاولة الاستقرار وبسط النفوذ على ضاف نهر إلب وأعالى الدانوب وسويسره .

وقد كان طريق الرين والرون أهم وأخطر طرق الاتصال بين حوض البحر الأبيض المتوسط وشمال غرب أوربا ، وكانت أشهر المعاقل على هذا الخط الرئيسى سولير Soleure ، وستراسبورج ، وساڤرن ، وماينزوتريف ، وكوبلنز ، وكولون ونمويجن Nymwegen ، وكلها أنشأها الرومان فى طول وعرض حوض الرين للحراسة وللأشراف على الحوض ، كما كانت حلقات الاتصال بين هضبة هلفتيا ، وفتحة برجندى وعنق ساڤرن من جهة ، ووادى السار وحوض الرين الأدنى من جهة أخرى (٥٢) .

وقد كانت الجماعات الجرمانية تنتهز الفرص للانقضاض على عدوها ، واستمرت معا كستها للرومان حتى أصبح تاريخهم فى حوض الرين سلسلة من الحروب الدفاعية عن مناطق نفوذهم ، وخطوط مواصلاتهم . وفى أقصى الشمال فقد الرومان سلطانهم على الضفة الشرقية للرين الأدنى ، وبدأوا ينظرون إلى مجرى النهر فى هذا القسم كأنه الحد الفاصل بين امبراطوريتهم وممتلكات جيرانهم .

ويجدر بنا أن نذكر أنه إذا كان الرومان قد عملوا على نشر حضارتهم وثقافتهم فى حوض الرين ، فإن هؤلاء الذين كانوا يسكنون منهم الحوض قد أخذوا يتشربون الشىء الكثير من حضارة وثقافة جيرانهم الجرمانيين . ولما جاءت جماعات الفرنجة والألمانى تطرق أبواب الأمبراطورية الرومانية ، قاومها الرومان بشدة ، غير أن بعض

الزاحفين أخذ يستقر فى حوض نكر ، وفى الغابة السوداء ، وفى الألزاس ، وهلفتيا Helvetia . وحول أواسط القرن الرابع الميلادى عادت الجماعات الجرمانية تغزو وتفتح من جديد ، وترتب على ذلك استقرار جماعات الألمانى Alemanni فى حوض الرين الأعلى ، وفى الوقت ذاته كان الفرنجة يتقدمون نحو الرين الأدنى ، وأخذوا يستقرون على ضفاف الموزل والميز ، وانتشروا حتى وصلوا إلى حوض شلد والسامبر ، حيث سمح لهم الرومان بالإقامة فى هذه المنطقة . وعلى هذا الأساس بدأت تظهر ضفتا النهر على صورتين متميزتين إحداهما صورة غالية رومانية على الضفة الغربية ، والأخرى جرمانية على الضفة الشرقية ، وكل من الجانبين يرى مصلحته فى معارضة الآخر . وفى أواخر هذا القرن عاد الفرنجة إلى اجتياح حوض الرين والإغارة على هضـبة اللورين ، ووصلت تلك الجماعات فى تقدمها غربا حتى حوض باريس(٥١) . وتوالى زحف هذه الجماعات وتعددت أدوار التقدم والتقهقر غير أنها نجحت فى النهاية فى توسيع هجومها على طول نهر الرين ، وهددت الامبراطورية الرومانية فى الصميم . وفى هذا الوقت ظهرت جماعات البرجنديين ، التى كانت تسكن ضفاف نهر ڤارت Warthe ، وقد وصل بهم المطاف إلى حوض الرين ، وسمح لهم الرومان بالاستقرار فى سبترارت وأودنفالد ، وكثر احتكاكهم بجماعات ألمانى . وفى أوائل القرن الخامس عبرت جماعات السويڤى Suevi والفندال نهر الرين زاحفة نحو الغرب ، وانتهزت جماعات البرجنديين هذه الفرصة للتقدم نحو منطقة سپير Speyer . وقد طغت الهجرات والغزوات ، من وسط أوربا وشرقها ، على حوض الرين ، وأخذت تقتطع لنفسها أنصبة فى هذا الحوض ، وفى الامبراطورية الرومانية ذاتها ، على الرغم من مقاومتها الشديدة المستمرة . ولما جاء الهون تحت قيادة أتيلا Attila كان طريقهم فتحة برجندى ، ومنها توصلوا إلى اجتياح هضبة اللورين ، ومعظم « بلاد الغال » ، وأعملوا التخريب والتدمير فى المناطق التى استولوا عليها(٥٤) ، ولم ينقذ الموقف سوى اضطرارهم إلى التقهقر فى سنة ٤٥١م ، وهكذا أمكن إيقاف هذا الزحف الاسوى ، وأمكن إنقاذ الحضارة الأوربية الغربية .

أما المرحلة الثالثة فتبدأ بعد أن أصبح الرن مثاراً للنزاع بين الجماعات الجرمانية نفسها ، إذ أنها أصبحت تسكن ضفتيه ، ولم تعد لكل من الرومان أو الكلت أية مصلحة مباشرة ، لأن النهر يجرى فى أرض تسكنها جماعات جرمانية ، من منبعه إلى مصبه . وهكذا تطورت مشكلة الرن الحربية والسياسية ، إذ أن النزاع بعد ذلك لم يعد قاصراً على طرفين يسكنان على ضفافه بل تهتم له وحدات سياسية تعيش بعيداً عن حوض النهر ذاته . والواقع أنه بعد سقوط روما ، وترك غربى أوربا نهبا مشاعا بين الجماعات الجرمانية أصبح من المتعذر أن ينظر إلى الرن كأنه يمثل حداً سياسياً بمعنى الكلمة . وإذا كان الكفاح بين الشمال والجنوب قد انتهى فى صالح الجماعات الشمالية ، فإن عهداً جديداً من الكفاح قد بدأ ، ونعنى بذلك الكفاح بين الشرق والغرب ، لأن جماعات الفرنجة ، والقوط ، والبرجنديين ، والألمانى ، والسكسون ، أخذت بدورها تعمل على شغل الفراغ الذى أحدثه انسحاب الرومان من الميدان . وإذا كانت أهمية نهر الرن من الناحية الحربية والسياسية قد أصابها بعض الوهن والضعف ، فإن بعض روافده مثل موزل ، وناهى Nahe ، وكويش Queich ، ولوتر Lauter ، قد أصبحت جميعها تمثل حدوداً جديدة لها خطورتها وأهميتها فى مناطقها الخاصة .

وقد أخذ الفرنجة يتقدمون نحو الغرب على حين أخذ الألمانى يزحفون نحو الشمال . ولم يلق الغزاة الفاتحون مقاومة تذكر إذ نجح الفرنجة فى سنة ٤٨١ م ، فى بسط نفوذهم على معظم فرنسا ، كما نجح زعيمهم كلوفس فى ضم القوط الغربيين والبرجنديين إلى جانبه . وهكذا بدأ عهد الكفاح بين جماعات الفرنجة على الضفة الغربية وجماعات الألمانى على الضفة الشرقية . وقد نجح كلوفس فى طرد الألمانى من اقليم الألزاس ، وفى أوائل القرن السادس انتزع حوض نهر نكر من أيديهم ، وبذلك تمت للفرنجة السيطرة على الرن ، تلك السيطرة التى دامت زهاء قرنين من الزمان ، ولم يعكر صفوها سوى بدء موجة جديدة من الهجرات العنيفة الزاحفة من الشرق نحو الغرب ، فى القرن السابع ، بسبب ضغط الجماعات السلافية على

مؤخرة الجماعات الجرمانية فى الشرق، حتى أصبح لزاماً عليها أن تتقدم نحو الغرب[٥٥].
ولما زال خطر هذه الهجرات عمد الفرنجة ، فى أوائل القرن الثامن ، إلى تحصين أنفسهم على شواطىء الرين ، واخضاع جماعات الفريزيين Frisians والسكسون ، وبفضل مجهودات شرلمان صار الرين يجرى فى وسط أراضى الفرنجة وحدهم . غير أنه عقب وفاته فى سنة ٨١٤ تأثرت وحدة الرين نتيجة عملية التقسيم والتجزئه .
وعلى أساس معاهدة فردان سنة ٨٤٣ م ، قسمت أمبراطورية الفرنجة إلى أقسام ثلاثة، روعى فيها أن يضم كل منها شعوباً متقاربة فى الجنس ، واللغة ، والدين ، والاتجاه السياسى ، ومع هذا كله فقد ترتب على هذا التقسيم طعن وحدة حوض الرين فى الصميم ، إذ أن بذور الشقاق ، والاختلاف ، وكثرة الحدود السياسية ، قد خلفت فيما بعد عدداً من المشكلات السياسية العويصة . وقد أعادت معاهدة مرسن Mersen سنة ٨٧٠ م ، إلى حوض الرين ، وحدته وجمعت شمله من جديد ، وأصبحت ضفته الغربية التى تسودها اللغة الألمانية ، خاضعة لألمانيا[٥٦] . وعلى ذلك أصبح الرين فى بعض أجزائه يمثل حداً غربياً لألمانيا بعد أن كان شرياناً طبيعياً فى وسط أمبراطورية شرلمان . ويمكن اعتبار معاهدة مرسن بين شارل الأصلع ولويس الألمانى خاتمة هذه المرحلة من التاريخ السياسى للنهر . أما المرحلة الرابعة فقد رأت عهداً من القلاقل والاضطرابات ، وانقسمت الدولة الغربية إلى عدد من الوحدات السياسية الثانوية ، بعضها قام على أساس وحدة اللغة أو التقاليد ، على حين قام البعض الآخر على أساس جنسى . وهكذا ظهر النورمان ، والسكسون ، والألمانى ، والفرنجة ، والثورنجيون والباڤاريون ، على شكل شعوب منعزلة منفصلة . وقد ظلت دولة لوترنجيا ملكا مشاعاً بين طرفى النزاع على جانبيها فى الشرق وفى الغرب . وقد ساعدت هذه الاضطرابات المستمرة على نجاح غزوات النورمان والسلاڤ والمجيار Magyars ، الذين خربوا ودمروا كل ما وصلت إليه أيديهم ، والذين نجحوا فى اجتياح ألمانيا ، والوصول إلى حوض الرين الأدنى فى أواسط القرن العاشر[٥٧] . وقد ظلت الضفة الشرقية على حالتها من الانقسامات الداخلية بين حكام مقاطعاتها طول القرن

الحادى عشر على حين كانت الضفة الغربية توحد قوتها ، وتجمع كلمتها حتى أصبحت فرنسا عزيزة الجانب تنتهز الفرص لبسط نفوذها ، وللتدخل فى شئون عشرات الولايات الألمانية الصغيرة المجاورة ، التى ما كانت لتقوى على الدفاع عن نفسها . وإذا كان حوض الرين قد دخل ضمن الأمبراطورية الألمانية فى القرن الثالث عشر ، وسادته السكينة والاستقرار والطأنينة ، وشملته الحضارة والهناءة والرفاهية كما يستدل من حالة بعض المدن الرئيسية مثل ستراسبورج ومايتز وكولون ، فإن هذا العهد لم يطل كثيراً ، لأن وفاة رودلف سنة ٢٩١ كانت نذير الفوضى بين ربوع هذه الأمبراطورية الجرمانية المقدسة ، وأصبح حوض الرين ميداناً لكفاح شديد ، وانتهزت فرنسا هذه الفرصة لتوسيع رقعتها على حساب جيرانها فى الشرق ، ونجحت فى تعديل حدودها الشرقية وبسط نفوذها على اللورين ، والاستيلاء على اقليم برجندى ، الذى يعتبر مفتاح الرين الأعلى . وهكذا مهدت فرنسا السبيل للاستيلاء على الألزاس ، وبعبارة أخرى كان نفوذ فرنسا فى أوائل القرن الرابع عشر يسود الأراضى المنخفضة واللورين وبرجندى ، وكذا عدداً من المقاطعات الألمانية فى أجزاء مختلفة من الحوض . وهذا هو فى الواقع الأساسى الذى أخذت فرنسا تبنى عليه سياسة الوصول إلى الحدود الطبيعية الضرورية ، التى يجب أن تشمل أيضاً جميع أحواض الشلد والميز والساءون والرون ، وتتفق مع تلك الحدود القديمة التى رسمها قيصر لنفسه . وفى أواسط القرن الخامس عشر أخضعت الألزاس ، وأصبحت فرنسا تشرف على عنق ساڤرن وتطل على الوادى الأخدودى . وفى القرن السادس عشر كان حوض الرين مسرحا لحروب الطوائف الدينية المختلفة ، وميداناً للصراع والمنافسة بين الأسر الحاكمة ، وبخاصه أسرتى هابسبرج وڤالوا : Valois . وقد ساعدت حاله الانقسام الشديد بين الولايات الألمانية على تمكين فرنسا من وضع حدودها الشرقية على أسس ودعائم متينة(٥٨) . وقد سبقت الأجزاء العليا والأجزاء الدنيا من الحوض جاراتها فى سباق تكوين قومياتها ، والحصول على استقلالها . ومن الطبيعى أن يثير استقلال هولند وسويسره ، كثيراً

من المشاكل بين ألمانيا وفرنسا ، وبخاصة مشكلة توازن القوى بين دول غرب أوربا . ويجدر بنا أن نذكر أن مشكلة توازن القوى قد تطورت كثيراً إبان القرن السابع عشر ، وكثيراً ما خلط الساسة بين الأغراض الدينية والمسائل السياسية البحتة . وقد أصبحت هضبة لورين منطقة الخطر العظمى فى حوض الرين ، وكان الفرنسيون قد حولوا متزوتول وفردان إلى قواعد ارتكاز للتقدم نحو الشرق ، على حين كانت الألزاس منطقة حدود بين فرنسا وألمانيا . وفى أثناء حرب الثلاثين سنة كانت ألمانيا مسرحا لحروب طاحنة ، ورأت أراضيها جيوش كثير من الأمم القريبة والبعيدة ، ونالها من الخراب والدمار ما جعل بعض أجزائها قاعاً صفصفاً . وقد كان نصيب حوض الرين من التخريب والتدمير أقسى وأمر ، لأن نسبة عظيمة من السكان قد هلكت أو شردت ، ويقدر البعض أنه لم يبق به أكثر من ثلث مجموع سكانه . وقد ترتب على صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ ظهور ألمانيا جديدة مقسمة بين أكثر من ٣٥٠ وحدة سياسية لا رابطة بينها ، وفى الوقت ذاته خرجت فرنسا ، وقد أضافت لنفسها معظم الألزاس واللورين ، وبهذا ثبتت قدمها على الضفة الغربية ، وأصبحت تبسط نوعاً من النفوذ والاشراف على الضفة الشرقية(٥٩) . وبفضل تشجيع فرنسا تكوّن حلف الرين سنة ١٦٥٨ ، ومعنى ذلك فصل الحوض عن باقى الوحدة الجرمانية الكبرى ، وبدء ظهور روح استقلالية انفصالية . ثم كانت حملات لويس الرابع عشر التى يمكن اعتبارها من أعظم الحملات الواسعة النطاق التى جاءت إلى حوض الرين . ولا يسمح المقام بتتبع هذه الحملات وطرقها ووسائلها ، ويكفى أن نذكر أنها تمكنت من اخضاع كثير من الولايات الألمانية على الضفة الشرقية ، ووصلت إلى أحواض ماين ونكر . وقد شمل التخريب والتدمير معظم أجزاء الحوض ، وتركت بعض الجهات خالية من السكان ، ومن معالم النشاط البشرى . وقد تركت معاهدة رزويك Ryswyk سنة ١٦٩٧ ، التى وضعت حداً لهذه الحملات ، الحدود الفرنسية بحيث تشمل الضفة الغربية للرين . ولما مات لويس سنة ١٧١٥ ، بعد أن اشترك فى حرب الوراثة الإسبانية ، كانت فرنسا

ما زالت تملك الألزاس واللورين ، وعدداً من الحصون والمعاقل على الرين الأوسط والأدنى ، وتبسط حمايتها على ماينز وكولون ، وغيرها من المدن الألمانية . ويلوح أن هذا العمل وضع أساس السياسة الفرنسية التقليدية التى رسمها ريشليو ، والتى أصبحت فيما بعد الدستور الفرنسى لحدود فرنسا على هذا النهر . وقد ظلت حالة حوض الرين على ما امتازت به من التفكك والانقسام طوال القرن الثامن عشر .

وفى الواقع كان حوض الرين فى هذا العهد لا يمثل وحدة سياسية أو اقتصادية بحال ما ، إذ أن منابع النهر ومصباته كانت جميعها قد فقدت صلتها ، سياسياً واقتصادياً ، بباقى جهات الحوض ، كما أنها لم تعد ترتبط ، فى اتجاهاتها وميولها ، بأى طرف من طرفى النزاع على الضفتين ، إلا وفق ما تقتضيه مصالحها الخاصة . وفى الوقت ذاته كان سهل الرين الأعلى مجزءاً ، ومقسما بين عدد من الوحدات الصغيرة ، كما كان شأن الرين الأوسط ، ولو أن المنطقة ما بين سپيير Speyer وكليفز : Gleves كانت وما زالت ، فى صبغتها وطابعها ، ألمانية صرفة . أما مقاطعة پلاتينات فقد كانت صريعة مريضة بسبب ما أصابها من مرض التخريب والتدمير الذى صحب الحروب العديدة المستمرة التى رأتها هذه الجهات . ويضاف إلى ذلك أنه بعد تقدم نفوذ فرنسا نحو حوضى نهرى لوتر Lauter والسار ، قد أصبحت مقاطعة پلاتينات أكثر تعرضاً وأعظم استعداداً لقبول النفوذ الفرنسى . وينطبق هذا القول على الحصون الرئيسية الوسطى مثل ماينز وتريف Trèves وكولون والتى أصبحت مهددة من جانب فرنسا أكثر من ذى قبل . وقد كانت فرنسا تبسط نفوذها على المنطقة ما بين مقاطعتى پلاتينات ونيبرج Neuburg ، كما نجحت فى بسط نفوذها على مقاطعة اللورين أثناء النزاع على عرش پولند .

ولم تهمل فرنسا شأن حوض الرين طوال هذا القرن الثامن عشر ، بدليل محاولاتها المتعددة فى سنوات سنة ١٧٣٣ و ١٧٥١ ، لتوسيع منطقة نفوذها ، ولتأمين حدودها الشرقية ، مهما كان الثمن الذى يطلب اليها دفعه فى هذا السبيل . وإذا كانت حروبها مع انجلترا قد أفقدتها الشىء الكثير من امبراطوريتها الاستعمارية

مثل كندا ولويزيانا فى أمريكا الشمالية ، فإنها كانت ترى فى حوض الرين ما يعوض عليها هذه الخسارة . وفى سنة ١٧٨٢ كان هناك أكثر من ١٥٠ مقاطعة على الرين تخضع للنفوذ الفرنسى ، مع أن انجلترا كانت تنظر إلى حوض الرين الأدنى كأنه منطقة نفوذها الطبيعية ، وأنه بهذه الوسيلة يمكن الاحتفاظ بمبدأ التعادل والموازنة بين القوى السياسية الكبرى فى الحوض كله .

وقد كانت الثورة الفرنسية أعظم أثراً فى حوض الرين منها فى أى جزء أخر من غرب أوربا ووسطها ، ذلك لأنها أحدثت الاضطراب والقلق والفوضى فى مئات من مقاطعات الرين ، وهنا بدأت حروب الثورة الفرنسية فى ميادينها على الضفة الغربية للنهر ، وكانت ستراسبورج من أهم القواعد التى اتخذت لإدارة الحركات السياسية والحربية فى مختلف الجهات . وقد تقدمت جيوش الثورة الفرنسية عبر الرين للاستيلاء على سپير وماينز وڤرمز Worms ومعظم مقاطعة پلاتينات ، ونجحت فى هذا كله ، ووصلت فى زحفها شرقا حتى أخضعت فرنكفورت

ويلحظ هنا تطور ظاهر فى مبادىء الثورة الفرنسية الخاصة بحدود الدولة ، وما يجب أن تكون عليه هذه الحدود من حيث الجنس والقومية . ذلك أنه بفضل هذا التقدم نحو الشرق سارت الثورة الفرنسية على نمط الدستور الفرنسى القاضى باعتبار الرين الحد الطبيعى من جهة الشرق . وقد أعلنت فرنسا إبان ثورتها ، على لسان دانتون وكارنو Carnot ، أن جبال البرانس والالب ونهر الرين والمحيط تمثل حدود فرنسا الطبيعية . ومعنى هذا أن الثورة السياسية الفرنسية ، التى قلبت أو عدلت كل شىء تقريباً ، لم تتمكن من تعديل أو تحوير هذه السياسة فيما يتعلق بحدود فرنسا الشرقية . وقد نجم عن حروب الثورة الفرنسية أن تمكنت فرنسا من إخضاع جميع الأراضى على الضفة الغربية ووضعها تحت نفوذها وسلطانها . وقد أعطى صلح بال سنة ١٧٩٥ جميع الأراضى ، على الضفة الغربية من بال حتى أمرخ Emmerich ، التبعية الفرنسية من غير قيد أو شرط . وهكذا فرض على كثير من أجزاء الحوض أن يبقى ضمن منطقة النفوذ الفرنسى ، على الرغم من الاختلاف فى الجنس واللغة

والتقاليد ، وفى الوقت ذاته عمدت فرنسا إلى غزو هذه الأقاليم بحضارتها وثقافتها وتقاليدها بمختلف الوسائل ، ونجم عن كل ذلك ظهور حالة من الارتباك والفوضى زادت مشكلة الرين تعقيداً ، إذ كثيراً ما ترتب على تلك الحركات السياسية العنيفة حدوث تغييرات هامة فى الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، ولدرجة ما فى الناحية الجنسية واللغوية(٦٠) . وهل تؤدى قسمة حوض الرين طولياً ، وإقامة الحواجز الجمركية بحيث تتمشى مع مجرى النهر ، إلى غير هذه النتائج ؟ . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن الحوض الأعلى للنهر قد اقتطعته فرنسا لنفسها ولما ينصرم هذا القرن . ومعنى ذلك أن حدود فرنسا الشرقية ، ابتداء من جبال چورا حتى البحر ، أصبحت تمتد فى منطقة غير فرنسية ، فى جنسها أو لغتها أو تقاليدها . ولما جاء القرن التاسع عشر كانت مشكلة حوض الرين قد ازدادت أهمية وخطورة بسبب حروب ناپليون ، ودخول انجلترا مضمار الكفاح والصراع المحافظة على توازن القوى السياسية فى هذا القسم من أوربا . وهنا تبدأ المرحلة الخامسة والأخيرة فى الجغرافية التاريخية لحوض الرين .

عمد ناپليون إلى تمكين فرنسا من السيطرة على حوض الرين ، الذى أصبح حداً فاصلا بين معسكرين متضادين . وقد كانت فرنسا تضع يدها على مصبات الرين ، كما كانت تتحكم فى ممرات الألپ . وفى سنة ١٨٠٣ أضافت فرنسا إلى نطاق نفوذها ٤٢ مقاطعة من مقاطعات الرين البالغ عددها ٤٨ . وفى سنة ١٨٠٦ ظهر اتحاد الرين الذى شمل جميع أراضى الحوض(٦١) ، غير أن هذا الاستقرار النسبى لم يستمر طويلا ، لأن حوض الرين أصبح ميداناً للحروب العنيفة التى ظهرت من جديد سنة ١٨١٣ ، والتى وضع صلح باريس حداً لها . وقد احتفظت فرنسا ، حتى فى هذه الفترة من تاريخها المضطرب ، بإشرافها على كثير من جهات الحوض على الضفة الغربية للنهر ، وبقى لها بعض الحصون والمعاقل مثل سارلويس وساربركن ولنداو وغيرها . ولما جاء مؤتمر فينا قضى لفرنسا بأن تحتفظ بحوض السار وبالألزاس واللورين ، ولكن نجحت بروسيا فى أن تحمل المؤتمر على منحها جميع المنطقة

ما بين ناهى Nahé وأمرخ عند حدود هولند على النهر ، بعد إن كانت قد فقدت نفوذها هنا منذ سنة ١٧٩٥ . وقد عمل المؤتمر على تحرير الحوضين الأدنى والأعلى للنهر من السيطرة الفرنسـية حتى يتيسر ابعادهما عن دائرة النزاع ، وبهذا وضع أساس قبول فـكرة جعلهما من المناطق المحايدة .

وأهم ما يلحظ عن الحدود التى وضعها مؤتمر فينـا ، أنها تمثل حدوداً اصطناعية بحتة لا تستند إلى قواعد جغرافية طبيعية يمكن أن يعتمد عليها ، إذ أن نقط الارتـكاز الخطيرة فى الحوض كانت موزعة بين الطرفين المتنازعين . وهكذا ظل الخطر وبقيت حالة التحرج التى كان يراد التخلص منها . وقد ساعد احتفاظ فرنسا باقليم الألزاس واللورين على إعطائها حق الاشتراك فى كل ما يتعلق بالنهر وحوضه . كما أن ظهور بروسيا الناهضة قد غير وضع المصالح الألمانية، التى كان يمثلها عدد غفير من الولايات الصغيرة المستضعفة التى لا حول لها ولا قوة ، وبذلك بدأ عهد من الصراع بين بروسيا وفرنسا ، ذلك الصراع الذى حوّلها إلى معسكرين متعارضين دائمين . ولم يقتصر هـذا الصراع على الناحية الحربية فحسب بل شمل جميع نواحى النشاط فى الحضـارة والثقافة [٦٢] ، فمثلا اشتد تطرف بعض كتاب فرنسا مثل ادجار كينيه « Edgar Quinet » ولوى بلان « Louis Blanc » وفـكتور هوجو فى الدفاع عن مصالح فرنسا فى حوض الرين ، وتوسلوا فى كتاباتهم بمختلف البراهين والأدلة . أما الجانب البروسى فـكان من أشهر ممثليه بكر Becker ، وماكس شكنبرجر Max Scheckenburger وملتكه Moltké ، وهؤلاء طفقوا يروجون ويدعون إلى توطيد وجهة النظر الألمانية فى حوض الرين ، وينكرون من جانبهم كل ما تدعيه فرنسا من الحقوق . ولما جاء نابليون الثالث عادت مشكلة الرين إلى الظهور على جانب كبير من الخطورة . وقد حاول نابليون الثالث اجتذاب بريطانيا إلى جانبه بقصـد الحصول على موافقتها ، إذا ما عمد إلى تعديل الحدود السياسية الموضوعة على الضفة الغربية للنهر ، ولـكنه فشل فى هـذه المحاولة ، ولم ينجح فى تحقيق مشروعه الخاص بالسيطرة على حوض النهر جميعه ، أو حتى على الضفة الغربية

وحدها . وربما يكون ذلك الفشل راجعاً إلى أن فكرة القومية أخذت تدب وتنمو بقوة فى الولايات الألمانية ، تحت زعامة بروسيا الناهضة من جهة ، وإلى ظروف القارة الأوربية السياسية من جهة أخرى . والواقع أن كل تقدم فى الروح القومية الألمانية كان معناه تأخير تحقيق المطالب الفرنسية الخاصة بالسيطرة على الرين من جديد . وقد حاول نابليون تكوين اتحاد يجمع شتات الولايات الرينية تحت زعامة فرنسا غير أن نهضة بروسيا واشتراكها الجدى فى عمليات تنظيم القوى السياسية فى غرب أوربا وتوازنها ، حالت دون تكوين مثل هذا الاتحاد . كذلك كانت محاولة نابليون سنة ١٨٦٦ ، بقصد الحصول على مقاطعة لانداو Landau ، وساربركن ولكسمبرج وبلجيكا ثمناً لعقد معاهدة تحالف مع بروسيا تصفى الحساب بين الطرفين ، وتضع حداً لمطامع كل من الدولتين[٦٣] . غير أن هذه المحاولة كان نصيبها الفشل . وقد أيد مؤتمر السفراء الذى اجتمع لبحث مشكلة دوقية لكسمبرج ، هذا الاتجاه بتقرير حياد لكسمبورج وتجريدها من حصونها سنة ١٨٦٧ . ولما حاول نابليون عقد تحالف جمركى بين فرنسا وبلجيكا ، وقفت بريطانيا وبروسيا موقف المعارض وفشل المشروع . وقد أدت هذه المعارضة إلى عودة نشاط الكتاب الفرنسيين المتطرفين أمثال جيراردان Girardin وشارل ملر Muller ، الذين أخذوا يكتبون عن حدود فرنسا الشرقية ، وعن قيمة الرين بالنسبة لفرنسا[٦٤] ، وبدأت كلمات نابليون الأول « لا حماية لفرنسا بدون الرين ومقاطعاته وبلجيكا » تتكرر وتدوى من جديد . ولم يقف البحث عند هذا الحد بل أن شارل ملر أخذ يكتب عن حدود فرنسا على الرين بصفة خاصة ، ويطلب أن يعتبر الرين من ستراسبورج حتى كولون وحدة جغرافية يجب ربطها بفرنسا كما تقضى بذلك ظروف طبيعتها . وعلى هذا الأساس كان يذهب إلى حد المطالبة بإعادة كولون إلى فرنسا . أما الجانب الألمانى فكان شديد اليقظة والحذر فى كل ما يتعلق بحوض الرين . وكان بسمرك يمثل روح ألمانيا الجديدة . ولما أعلنت حرب السبعين فى ١٩ يوليه سنة ١٨٧٠ بين فرنسا وألمانيا ، كان النزاع على الرين أساسها ، وكان حوضه ميدانها الرئيسى[٦٥] ،

وهنا تبرز بوضوح المرحلة الخامسة والأخيرة فى التطور التاريخى والسياسى للحوض .

يضيق المقام عن تتبع أسباب وأطوار هذه الحرب التى انتهت بفوز ألمانيا ، وعقد معاهدة فرانكفورت فى ١٠ مايو سنة ١٨٧١ . وقد ترتب عليها أن أصبح الرين ، بعد أن ضمت ألمانيا الألزاس واللورين إلى رقعتها ، يجرى وسط أرض ألمانية ما بين بال على الحدود السويسرية ، وإمرخ على الحدود الهولندية [٦٦] . وهكذا أصبحت الأمبراطورية الألمانية الجديدة ، بعد هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية ، مركز الجاذبية فى دائرة توازن القوى السياسية الأوربية ، وغدت تملك الرين من الحدود السويسرية إلى الحدود الهولندية ، غير أن هذه الحالة الجديدة لم يترتب عليها انصراف غربى أوربا إلى حيث ينشد الراحة والطمأنينة ، بتوجيه الجهود إلى ناحية أخرى بعيدة عن هذا الكفاح المرير الطويل ، بل كانت النتيجة عكس هذا كله ، إذ بدأت القوى السياسية الأوربية تواجه الحالة الجديدة بطريق غير مباشر أساسه الانغماس فى سلسلة من الأعمال والحركات السياسية ، واشتركت القارة جميعها فى هذه الظاهرة الجديدة ، وبدأت القوى المختلفة ترسم خططها ، وتشكل سياساتها على غير القواعد والتقاليد المعروفة ، التى كانت قبل ذلك تحدد اتجاهات التوسع السياسى أو الاقتصادى لكل منها . ويلحظ أن الطابع الذى كان يسود هذه السياسات والتطورات ، كانت تشوبه نزعة أمبراطورية ، وربما كان ذلك نتيجة طبيعية لأثر النهضة الصناعية والاقتصادية التى شملت معظم هذا القسم من القارة . ويلوح أن هذه الروح الاقتصادية قد أصبحت العامل الرئيسى فى هذه المرحلة من مراحل الكفاح من أجل حوض الرين [٦٧] . وإذا كانت الحرب السبعينية قد وضعت حداً مؤقتاً للمطالب الفرنسية فى هذا الحوض فإنها لم تمنع عودة السياسة الفرنسية إلى الاهتمام الشديد بعد أن أخذ الحوض يخطو خطوات واسعة فى نهضته الصناعية ، وبعد أن استثمرت موارده الطبيعية وازدادت ثروته وعظمت أهميته [٦٨] ، وليس من شك أن النهضة الصناعية قد جعلت من حوض الرين وحدة صناعية عظيمة تعتمد على الحديد فى اللورين والفحم فى حوض السار واقليم الرهر والبوتاس فى ساندجاو Sandgau ،

وعلى أساس استثمار هـذه الموارد المعدنية قامت صناعات عديدة كما أن إنشاء شبكة من الخطوط الحديدية تربط أجزاء الحوض ، والتقدم العظيم فى ملاحة نهر الرين وروافده ، وحفر كثير من الفنوات لتسهيل عمليات النقل المائى ، كل هذا جعل حوض الرين وحـدة صناعية كبرى لا نظير لها فى العـالم ، وفى الوقت ذاته يمثل جزءاً أساسياً من حياة أوربا الصناعية والاقتصادية والتجارية(٦٩) . وقد تطورت أهمية تلك الوحـدة حتى أصبح الدفاع عنها ضـد كل محاولة لالحاق الضرر بها مسألة لا تهتم لها أوربا فحسب بل يهتم لها العالم أجمع . ويمكن القول إن مشكلة الرين أصبحت فى هذه المرحلة تمثل مسألة دولية بمعنى الـكلمة ، وإن النضال والـكفاح من أجلها لم يعد قاصراً على طرفى النزاع الأصليين بل أصبح يهم أوربا والعالم أجمع ، ولو أن حالة الحرب أو السلم فى القارة ما زالت تابعة لنوع العلاقات السـياسية بين المعسكرين الألمانى والفرنسى بصفة خاصة .

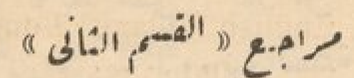
وقد عرفت فرنسـا كما عرفت ألمانيا ماهية هذا التطور النهائى لهـذه المشكلة المعقدة ، وبدأ كل منهما يواجه حقائق الحالة الجديدة بطريقته الخاصة . وقد تردد صدى هذا النزاع فى صلب المحيط السياسى الأوربى ، واعتبره الساسة ، حتى هؤلاء الذين لا يعنيهم الأمر مباشرة ، بأنه يمثل أعقد المشكلات الأوربية ، ويهمهم كما يهم طرفا الخصومة المباشرة ، حلها على الوجه المرضى . وهذا راجع إلى أنه فى الوقت الحاضر يصعب بل يستحيل تحديد مواطن الخصومات السياسية وحصرها ، لأن هـذه فى العادة تمس عن قرب أو بعد مصالح الدول الأخرى ، وعلى ذلك أصـبح لزاماً أن تقول هـذه الدول كلمتها ، وتشترك بالفعل فى كل ما يدور بشأنها . وإذا ما أضفنا إلى ذلك حالة الطرفين المتخاصمين ، وأن كلا منهما يسعى جهده ويسلك الطرق المختلفة بقصد اجتذاب حليف يشـد أزره معنوياً ومادياً ، فى السلم وفى الحرب ، أمكن تعليل حركة النشاط السياسى فى هذه الفترة . ومعنى هذا أن ذلك النزاع قد تعدى طرفى الخصومة إلى غيرها من الدول . ولما كان نظام توازن القوى يهم الجميع بدون تمييز ، ترتب على ذلك أن أصـبحت أوربا عبارة عن معسكرين

حربيين متضادين ، وكان لهذه الحالة السياسية الشاذة أكبر الأثر فى حياة القارة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وهكذا انصرم القرن التاسع عشر ، وحالة أوربا السياسية على هذا النحو من الانقسام ، وظلت مشكلة حوض الرين باقية على حالتها المضطربة . وإذا كانت ألمانيا قد رضت بالحالة التى خلفتها حرب السبعين فإن فرنسا كانت على النقيض من ذلك ، دائمة النظر نحو حوض الرين ، وكانت ترى أن الخسارة التى لحقتها لم يترتب عليها فقط تقليل عدد سكانها ، وأضعاف نفوذها الحربى ، وتهديد حدودها الشرقية ، بل إنها كانت تعتبر الرضاء بهذه الحالة إهانة للكرامة الفرنسية ، ويتطلب الشرف الفرنسى غسل هذه الإهانة حتى يمكن تضميد الجرح العظيم الذى أصاب عزتها القومية[٧٠] .

وفى أوائل القرن العشرين أثمرت السياسة الفرنسية ، وتم عقد تحالف بين فرنسا وبريطانيا ، وبالتالى مع روسيا ، حتى إذا ما حان وقت محاسبة ألمانيا على حوض الرين ، ساعدها حلفاؤها ضد عدوها الأكبر ، الذى عمل من جانبه على اجتذاب أمبراطورية النمسا والمجر وإيطاليا إلى معسكره . وفى الحقيقة إنه منذ بدء الحرب العظمى ، كانت مشكلة حوض الرين محور السياسة الفرنسية . وحين وضعت هذه الحرب أوزارها عدلت فرنسا حدودها الشرقية ، بعد إن استعادت الألزاس واللورين . ويلوح أن الفكرة الأساسية التى سادت معاهدة ڤرساى هى أن بقاء هذا الاقليم ، بثروته المعدنية ، والزراعية ، والرعوية ، فى يد ألمانيا ، معناه فى الحقيقة إبقاء التفوق لألمانيا على فرنسا ، وهذا ما كان يشكو الفرنسيون منه . وقد كانت هناك محاولات لإرجاع ألمانيا إلى حالتها قبل أن تتم وحدتها سنة ١٨٧١ ، ولكنها فشلت جميعها ، كما فشلت محاولات إيجاد حركات انفصالية فى ولايات حوض الرين ترمى إلى الاستقلال عن المانيا . ولما تأخرت ألمانيا عن القيام بأداء ما فرضته معاهدة ڤرساى من تعويضات قامت فرنسا وبلچيكا باحتلال منطقة الرهر الصناعية ، وبقيت الحالة مرتبكة حتى كان إقرار مشروع داوز والجلاء عن أراضى الرهر ، ثم انسحاب قوات الحلفاء من المناطق التى كانت تحتلها بحكم المعاهدة .

من هـذا كله يتضح أنه بعد مضى أكثر من ألفى سنة على ظهور مشكلة حوض الرين منذ عهد الأمبراطورية الرومانية القديمة ، ما زالت هـذه المشكلة قائمة ، وما زال طرفا النزاع ، وكأنهما لم ينتفعا بتجارب هذا الماضى الطويل . ويمكن القول إن التسلط على هـذا النهر يمثل أعظم مشكلات العصر الحديث قاطبة . وحين قامت الحرب الحاضرة كان حوض الرين من أعظم ميادينها ، وأكثرها تأثراً واضطراباً ، إذ أخذت ألمانيا تبسط نفوذها على معظم الحوض ، وفى الوقت ذاته تراها تعلن عودة ما قضت بسلخه معاهدة ڤرساى إلى حظيرة الوطن الألمانى . ولا يعلم مصير هذه المحاولة ، لأن رحى الحرب عادت إلى الرين من جديد ، وبدأت عملية تحرير أجزاء حوضه . ويتوقف الوضع الأخير على كيفية معالجة هذا الموضوع ، بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها .





1— Blanchard W.O. and Visher S.S. "Economie Geography of Europe" London, 1931 pp. 45-46.

2— Cleland H. F. "Trade routes in prehistoric Europe" Economic Geogr., 1927 vol. 3 pp. 232-237.

3— Wallis B.C. "Europe" vol. 1 Stanford's Compendium etc London, 1924 pp. 324-325.

4— Shackleton M.R. "Europe, a regional geography" London 1934 p. 114.

5— Cundall L.B. "Western Europe" London 1932 pp. 3 [illegible] etc.

6— Addis W.E. "Christianity and the Roman Empire" London, pp 3-5 + 46-47 etc.

7— Cundall L.B. "Ibid" pp. 34-35.

8— Ripley N.Z. "The races of Europe" London 1899 pp. 219-223.

9— Finot J. "Race prejudice" London 1906 pp. 236-237.

10— Keane A.H. "Man, past and present" 2nd. edition Cambridge 1920 pp. 503-507.

11— Haddon A.C. "The races of man" Cambridge 1924 p. 55.

12— Haddon A.C. "The wanderings of peoples" Cambridge 1927 p. 40 etc.

13— Keane A.H. "Ibid" p. 457.

14— Finot J. "Ibid" p. 238.

15— Finot J. "Ibid" pp. 239-240.

16— Keane A.H. "Ibid" p. 458 etc.

17— Haddon A.C. "The wandering etc." pp. 42-44.

18— Stegemann H. "The struggle for the Rhine" London 1927 pp. 11-17. etc.

19— Addis W.E "Ibid pp. 46-48 etc.

20— Stegemann H. "Ibid" pp. 18-21 etc.

21— Ripley W.Z. "Ibid" p. 223 etc.

22— Keane A.H. "Ibid" p. 514 etc.

23— Finot J. "Ibid" p. 240 etc.
24— Finot J. "Ibid" p. 244.
25— Peake H. "The English Village" London 1922 p. 28 etc.
26— Haddon A.C. "The wanderings etc." p. 44.
27— Finot J. "Ibid" p. 251.
28— Finot J. "Ibid" pp. 251-252.
29— Keane A.H. "Ibid" pp. 513-514.
30— Peake H. "Ibid" p. 81 etc.
31— Ripley W.Z. "Ibid" p. 144 etc.
32— Ripley W.Z. "Ibid" p. 156.
33— Stembridge J.H. "Germany" London 1932 pp. 102-103.
34— Ripley W.Z. "Ibid" p. 237.
35— Peake H. "Ibid" p. 71.
36— Peake H. "Ibid" p. 99.
37— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 104-106.
38 — Peake H. "Ibid" p. 100.
39— Peake H. "Ibid" pp. 108-109.
40— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 107-108 etc.
41— Cundall L.B. "Ibid" pp 358-359.
42— Haddon A.C. "The wanderings etc." pp 41-42 etc.
43— Keane A.H. "Ibid" p. 504.
44— Cundall L.B. "Ibid" pp. 32 35.
45— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 138-139.
46— Dawson W.H. "Preblems of the peace" Londcn pp. 105-106 etc.
47— Wallis B.C. "Ibid" pp. 324-326.
48— a) Ripley W.Z. "Ibid" pp. 164-166.
b) Wallis B.C. "Ibid" pp. 388-389.
49— Keane A.H. "Ibid" pp. 512-513.
50— Haddon A C. "The wanderings etc." p. 43 etc.
51— Stegemann H. "Ibid" pp. 22-23.
52— Ormsby H. "France" London 1931 pp. 325-326
53 — Stembridge J.H. "Ibid" pp 105-107
54— Peake H. "Ibid" pp. 92-95.
55— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 107-109.
56— Stembridge J.H. "Ibid" pp. 109-110.
57— Haddon A.C. "Ibid" pp. 43-45 etc.

58— Wallis B.C. "Ibid" pp. 324-328.
59— Stegemann H. "Ibid" pp. 121-122.
60— Stegemann H. "Ibid" pp. 273-274.
61— Stegemann H. "Ibid" pp. 309-311.
62— Stegemann H. "Ibid" pp. 351-353.
63— Stegemann H. "Ibid" pp. 362-364.
64— Muller C. "Nos frontieres du Rhin" Paris pp. 17-23 etc.
65— Dawson W.H. "Ibid" pp. 260-262 etc.
66— Stieve F. "Germany and Europe" London 1928 pp. 3-6 etc.
67— Stieve F. "Ibid" pp. 27 + 54 etc.
68— Dawson W.H. "Ibid" pp. 120-122.
69— Blanchard W. "Iron and steel industry of Europe" Geog. Journal, vol. 27 pp. 247-263.
70— Dawson W.H. "Ibid" pp. 123-125 etc.

محمد عبد المنعم الشرقاوى

فهرس الكتاب

القسم الأول

القسم الثانى

خطأ وصواب

صحيفة	٣	سطر	٢١	آخر	والصواب	آر
»	٣	»	٢١	فروع	»	روافد
»	١٦	»	٣	طريقا	»	طريق
»	١٨	»	٦	منقطة	»	منطقة
»	١٩	»	٢٢	يتكاثر	»	لا يتكاثر
»	٦٢	»	٢٤	البهيد	»	البعيد
»	٨٩	»	٢٣	غيرها	»	غيرهما
»	٩٠	»	٤	رضت	»	رضيت

